

مقدمة

(*)

فِي آدَبِ الْعِرَاقِ الْقَدِيمِ

الاستاذ طربقلا

حوار أدبي قبل أربعة آلاف عام :

elima ina eli Tillàni labirüti italalk

amur gulgullete arbüti û pànüti

ayyü bél limutti - ma ayyü bèl usàti

(اعلُ فوق الاطلال القديمة وتمشَّ عليها وانظر الى جماجم المتأخرين والماضين ،

فأيهم الاشرار وأيهم الصالحون ؟)

• • •

هذه الايات التي اوردنا نصها بلفظها في اللغة البابلية بالحروف اللاتينية وترجمتها العربية جزء من قصيدة وضعت على هيئة حوار (dialogue) تهكمي فلسفي بين سيد وعبد عاشا قبل « هوميروس » وغيره من شعراء العالم القديم المشهورين بعشرات القرون في احدى تلك المدن القديمة التي شيدت في سهول وادي الرافدين وازدهرت في آدابها وفنونها ومعارفها قبل أن تظهر الى الوجود أثينة ورومة بقرون كثيرة . ومع أن تلك المدن القديمة لم يبق منها الآن سوى رسومها الممثلة بهذه الالوف الكثيرة من الاطلال الدارسة المنتشرة في ربوع العراق ، بيد أنها تحدث فناء الزمن وتسامت على قول الشاعر الامريكي

(*) من بحث يعده المؤلف للنشر

« لونگك فيلو » (Longfellow) لأنها تركت وراءها أكثر من « آثار
أقدام لها على رمال الزمن » . أجل لأنها خلفت من بعدها تراث « الكلمة المدونة »
والكلمة المدونة كانت ولا تزال جوهر الانسانية وفكرها الذي يميزها عن المملكة
الحيوانية . وإذا كانت « الكلمة » ، وهي سر الوجود واصل الوجود ، قد كانت
منذ البدء ، وجدت منذ ان وجد الانسان وميزته عن سائر المخلوقات فان معجزة
تدوين الكلمة قد تحققت في وادي الرافدين لأول مرة في مسيرة الانسان المضنية
عبر العصور المتطاولة ؛ وعندئذ انتقلت البشرية من ظلام « أميتها » التي استغرقت
نحو تسعة وتسعين بالمائة من عمر الانسان على هذه الارض قبل نحو مليوني عام ،
وسرعان ما تطورت الكلمة المدونة في حضارة وادي الرافدين فصارت أدباً وتأريخاً
وعلماً . وعندئذ شرعت طاقات الفكر الانساني وابداعه تتفتح وتزدهر ، والتجارب
والخبرات البشرية تتراكم وتتوارثها الاجيال عن طريق الكلمة المدونة التي لولا
ظهورها في حضارة وادي الرافدين لما ازدهرت أثينة ورومة وغيرهما من مراكز
الحضارات البشرية في علومها وآدابها وفلسفتها .

وشاءت الصدفة الحسنة ان لا يجد كتبة العراق القديم أيسر وأسهل من « الطين »
يدونون فيه الكلمة اي الفكر . فالطين ، بخلاف سائر مواد الكتابة التي استعملتها
الحضارات الأخرى ، لا يفنى . إنه « طين العراق الخالد » الذي حفظ لنا اولي
تجارب رائدة في تاريخ البشرية حققها العراقيون القدامى يوم انتقلوا الى طور
الحضارة والمدنية ، وهي التجربة المثيرة في تأريخ تطور الانسان المديد والتي
ماتزال البشرية تعيشها وتعانيها بخيرها وشرها .

مميزات أدب العراق القديم وخصائصه العامة :

قبل أن نتناول بالوصف أشهر القطع الأدبية التي وصلت إلينا من أدباء العراق القديم ، نمهّد لذلك بإيراد بعض الملاحظات التوضيحية عن خصائصه وميزاته العامة لفهم التراث الأدبي من حضارة وادي الرافدين :

١- قدم أدب العراق القديم :

ونبدأ من هذه الخصائص العامة بالبرهنة على أن أدب حضارة وادي الرافدين أقدم أدب ابتدعه الإنسان على ما اجمع عليه الباحثون في تأريخ الحضارات القديمة فكان أولى المحاولات في تأريخ الإنسانية للتعبير عن الحياة وقيمتها ومعانيها بأسلوب الفن الأدبي . ولكي لا يكون هذا الرأي من قبيل ارسال القول على عواهنه ينبغي ألا نكتفي بمجرد الاستشهاد باجماع الباحثين ، بل ندلل على ذلك بانتهاج الأسلوب التاريخي العلمي بان نقارن ما بين زمن ادب وادي الرافدين وبين ازمان آداب الحضارات القديمة الأخرى . وموجز ما يقال في الامر إنه على الرغم من ان الزمن الذي دونت فيه اشهر النصوص الادبية في حضارة وادي الرافدين لا يتجاوز اواخر الألف الثالث واولئ الألف الثاني ق.م الا ان تلك النصوص الادبية قد تم ابداعها وانتاجها في ازمان اقدم من عهود تدوينها وقد تناقلتها الاجيال المتعاقبة بالرواية الشفهية فوقع فيها الكثير من التطور الى ان بدأ القوم يدونونها في الواح الطين باشكالها النهائية الأخيرة التي جاءت فيها إلينا منذ مطلع الألف الثاني ق.م .

فإذا قارنا قدم هذا الادب ، سواء كان ذلك من ناحية زمن ابداعه ام زمن تدوينه ، باقدم آداب انتجتها الحضارات القديمة وجدناه يسبق جميع ما انتجه

الفكر البشري بعشرات القرون . فبالمقارنة مع حضارة مصر القديمة مثلا لما اياته شي من ادبها من عصر ازدهارها في العصر المسمى في تاريخ حضارة وادي النيل بعصر الاهرام (مطلع الألف الثالث ق.م) . وخلف الكنعانيون ، وكانوا من أشهر واكبر الاقوام السامية التي استوطنت الاقسام الساحلية من بلاد الشام ، نتاجاً أدبياً مهماً يرقى زمنه الى منتصف الألف الثاني ق.م كما اظهرت ذلك الاكتشافات الأثرية الحديثة في المستوطن الكنعاني القديم المسمى « اوغاريت » (راس الشمرا) الآن بالقرب من اللاذقية (١) ، أي أن زمن هذا الادب الكنعاني متأخر بالنسبة الى ادب حضارة وادي الرافدين بما لا يقل عن خمسة قرون . وتأخذ الادب العبراني على سبيل المقارنة حيث لا يتعدى زمن اقدم نتاج له ، ممثلاً باسفار التوراة ، القرن السادس ق.م ، أي انه متأخر عن عهد أدب العراق القديم بعشرات القرون . ونسوق للمقارنة أيضاً اقدم أدب انتجته الحضارة الاغريقية ، ممثلاً بالاولديسة والالياذة المنسوبتين الى هوميروس اللتين لا يتجاوز زمن تدوينهما القرن السابع او الثامن ق.م على اكثر تقدير . ومثل هذا يقال عن اقدم أدب خلفته الهند القديمة ، وهي نصوص الـ « رك فيسدا » (rigveda) وأدب ايران القديم الذي تمثله الـ « افستا » (أvesta) .

وسيتضح من الامثلة التي سنوردها عن النصوص الادبية انه على الرغم من سبق هذا الأدب جميع الآداب العالمية المشهورة التي عددناها ، فانه لما يثير الدهشة

(١) حول النتائج الباهرة التي اظهرتها التنقيبات الأثرية الفرنسية في (اوغاريت) منذ عام ١٩٢٨ راجع ايجاز ذلك في كتابي « مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة . (الجزء الثاني ١٩٥٦) الى ص ٢٦ فما بعد ، وكذلك :

C. Schaeffer, Ugaritica , 111, (1956 ' acta Orientalia, (1955)

Viralleaud , palais Royale d'Ugarit , (1957) ;

وعن نصوص الادب الكنعاني :

Pritchard (ed.), Ancient Near Eastern Texts , (1969)

لدى الباحث الحديث ان يجد ذلك الأدب الموغل في القدم يتميز بالمقومات الاساسية التي تميز الآداب العالمية الشهيرة ، سواء كان ذلك من ناحية الاسلوب وطرق التعبير أم من ناحية الموضوع والمحتوى والصور الفنية المعبرة ، والاصالة والجرأة وخطورة الموضوعات التي تناولها .

٢- وبالإضافة الى ميزة القدم التي بينها فان ادب حضارة وادي الرافدين يتميز على الآداب القديمة بخاصية أخرى مهمة ، تلك هي ان معظم تلك الآداب القديمة قد طرأ عليه الكثير من التحوير والتبديل والحذف او الاضافة على أيدي النساخ والجامعين والشرح ، في حين ان الادب السومري والبابلي قد جاء الينا بهيئته الاصلية غير محور كما دون باقلام الكتبة على الواح الطين قبل نحو ٤٠٠٠ عام (١) وهي الالواح المدونة بالخط الذي اطلق عليه مصطلح الخط المسماري (Cuneiform) .

ومن الطريف ذكره بهذا الصدد انه مع هذا القدم الموغل في الزمن فان ادباء العراق القديم عدوا أنفسهم حديثي العهد في الحضارة وأنهم ورثة ماض مجيد متقادم العهد ، تخيلوه على هيئة « عصر ذهبي » كان السلام والخير يسودان الأرض فيه « فلا خوف ولا حزن ولا بغضاء ولا حيوانات مفترسة تنازع الانسان البقاء . وكان البشر بلسان واحد يمجدون الاله انليل » ، كما جاء ذلك في احدي الاساطير السومرية (٢) . ولا يخفى ان هذه الفكرة التي تصور عهداً متخيلاً كان البشر فيه أسعد من عصرهم الراهن قد انتشرت في كثير من الاقوام على هيئة « الماضي الذهبي » ولم تتمكن فكرة « التقدم » من الانتشار إلا في العصور الحديثة ، وما يزال الكثير من اهل العصر الحاضر من يتصور وجود ذلك « الماضي الذهبي »

(١) انظر : S.N. Kramer, Sunmerian Mythology, (1944)

وعن الخط المسماري واصله وحل رموزه راجع كتابي : « مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة الجزء

الأول » الطبعة الثالثة (١٩٧٣) .

S.N. Kramer, IBID.

(٢) راجع :

٣- نسبة النصوص الادبية في مجاميع الواح الطين المكتشفة :-

اذا كانت مصادرنا عن أدب العراق القديم النصوص الاصلية المدونة بالخط المسماري في الواح الطين . فما مقدار الالواح المنقوشة بالنصوص الادبية بالنسبة الى عدد ماجاء الينا من الواح الطين التي اكتشفت في بقايا المدن القديمة ؟ وما المقصود في مصطلح النصوص أو الالواح الادبية ؟ وللإجابة على هذا السؤال بوجه الايجاز نقول : إن ما استخرج من الواح الطين المختلفة النصوص الى هذا اليوم يبلغ مئات الالوف ، وقد يناهز المليون لوح مما هو موزع الآن في المتاحف العالمية الشهيرة . على ان هذا العدد ، على كثرته ، لا يؤلف في الواقع الا نسبة غير كبيرة مما مايزال مطمورا في الاطلال القديمة المنتشرة في شتى ربوع العراق وفي بعض الاقطار المجاورة التي اقتبست حضاراتها القديمة الخط المسماري في تدوين لغاتها ومعه الكثير من التراث الأدبي والفني من حضارة وادي الرافدين . أما تخمين نسبة الالواح المدونة بالنصوص الادبية الى عدد ما ذكرناه من مجموع ما جاء الينا من الواح الطين المختلفة فهي نسبة قليلة لا يتجاوز عددها بضعة الآف ، لعله ما بين ثلاثة الى اربعة الاف لوح . ولكن لا يمكن التكهن عما سيكشف عنه المستقبل من نصوص ادبية أخرى قد تغير أو تضيف الى معرفتنا الراهنة بادب العراق القديم اشياء كثيرة . ولكن مع ذلك يمكن القول بوجه عام ان ما كشف عنه وتم درسه ونشره من نصوص أدبية لحد الآن يعبر عن المعدل العام او الصورة العامة لنصوص هذا الادب من حيث المواضيع التي تناولها وخصائصه ومقوماته العامة المميزة .

ومع انه يمكن اجمال ما نقصده بالالواح الادبية بانها النصوص الكتابية التي لاتتعلق بتدوين شؤون الحياة الاعتيادية كالمعاملات التجارية والقانونية والرسائل والشؤون الادارية ، وان كل ما عدا مثل هذه النصوص الاعتيادية يدخل في صنف

النصوص الادبية - نقول مع ذلك ان هذا تعريف مبهم او سالب فينبغي لنا ان نضيف الى ذلك ان اعتبارنا لهذا الصنف من الواح الطين على انه نصوص أدبية يستند الى المفاهيم المتعارف عليها في الادب ، من ناحية اسلوب التأليف اللغوي كوسيلة للتعبير الفني بنقل التجارب والصور والخبرات والاحاسيس الى القارئ او السامع الى غير ذلك من الخصائص التي يتصف بها النتاج الادبي في جميع العصور . وفي الوسع ايجاز ذلك في ثلاثة أمور :

أ- الموضوع او الفكرة التي تعبر عنها القطعة الادبية .

ب- الاسلوب الادبي الفني ، سواء كان شعراً أم نثراً ، المتصف بطراز خاص من النظم والتأليف المؤثر في مشاعر القارئ او السامع .

ج- اختيار المواقف والحوادث المؤثرة بالنسبة الى مفاهيم الحضارة التي انتجت الأدب المبحوث فيه . وسيوضح مما سذكره من النصوص الأدبية من حضارة وادي الرافدين انطباق هذه المقاييس الأدبية المتعارف عليها .

٤- الازدواج اللغوي في أدب حضارة وادي الرافدين :-

ومن الملاحظات المهمة التي يجدر ذكرها في هذه المقدمة لفهم أدب العراق القديم أمر يتعلق باللغة التي دون بها هذا الادب . فمن الحقائق التاريخية المعروفة عن حضارة وادي الرافدين انها كانت من الناحية اللغوية مزدوجة اللغة او ثنائية اللغة (bilingual) (*) حيث اللغتان المشهورتان : اللغة السومرية واللغة الاكدية (اي البابلية ، وهي الفرع الشرقي من عائلة اللغات السامية) (*) فاللغة الأولى ، أي السومرية ، كانت لغة السومريين الذين لانعرف عن أصلهم ومهدهم أشياء مؤكدة سوى أنهم ليسوا من الساميين ولغتهم ليست من عائلة اللغات

(*) راجع ايجاز هذا الموضوع المهم في كتابي : « مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة » الجزء الأول (الطبعة الثالثة ١٩٧٣) وفيه الاشارات الى الدراسات والبحوث المختلفة عن الموضوع .

السامية ولا من عائلة اللغات « الهندية - الاوربية » . وكانت السومرية ، منذ ظهور التدوين اي الكتابة في اواخر الألف الرابع ق.م ، اللغة السائدة في التدوين على الرغم من وجود الساميين في بلاد وادي الرافدين جنبا الى جنب مع السومريين منذ بداية الاستيطان البشري في السهل الرسوبي في مطلع الألف الخامس ق.م . وكان الطابع الثقافي المميز في الادوار الأولى القديمة من حضارة وادي الرافدين الثقافة السومرية بلغتها وأدبها ومعارفها المختلفة . ولكن سرعان مابرز كيان الساميين ولغتهم في التدوين بشكلها الاكدي في عهد السلالة الأكديّة السامية (٢٣٧٠ - ٢٢٣٠ ق.م) التي اسسها سرجون الأكدي الشهير . وتزايد اتساع التدوين بها والتكلم بها حتى طغت على اللغة السومرية . منذ مطلع الألف الثاني ق.م ؛ وساد الساميون في الحياة السياسية ايضاً . ولكن مع زوال السومريين من الحياة السياسية منذ الألف الثاني ظلت لغتهم ، مثل اللاتينية في اوربة ، لغة ثقافية اساسية ، كما بقيت الثقافة السومرية حية ، واستمر التدوين باللغة السومرية جنبا الى جنب مع اللغة الأكديّة (بفرعيها الاساسيين البابلية والاشورية) الى آخر عهود حضارة وادي الرافدين .

واستتبع عن هذا الازدواج اللغوي في حضارة وادي الرافدين نتائج ثقافية ولغوية وكتابية كثيرة لاجمال لذكرها ، فيكفي أن نقول من ناحية موضوعنا إنه لايمكن فهم النصوص الادبية في هذه الحضارة مالم يؤخذ في الحساب هذا الازدواج اللغوي ، سواء كان ذلك من ناحية ترجمة الكثير من القطع الادبية السومرية الى اللغة البابلية ، ام من ناحية تأثير النتاج الأدبي البابلي باصول سومرية أم من حيث استعمال الكثير من المصطلحات الكتابية السومرية في القطع الأدبية البابلية ، وتأثر هذه القطع بالاساليب اللغوية الأدبية السومرية . وان هذا يصدق بوجه عام على جميع النصوص الكتابية الأخرى التي خلقتها حضارة وادي الرافدين .

٥ - تحملنا الحقيقة السالفة على ذكر ملاحظة اخرى تتعلق بمدى تفهمنا نحن أبناء الازمان الحديثة للنصوص الادبية التي جاءتنا من حضارة وادي الرافدين عن طريق ترجمتها من جانب المختصين الى اللغات الحديثة . فمما يقال بهذا الصدد إنه على الرغم من ان فهم الباحثين المختصين باللغتين السومرية والبابلية لنصوص هذا الادب مستند الى اسس علمية لا يرفى اليها الشك من بعد حل رموز الخط المسماري وان هؤلاء المختصين متفقون على ترجمة النصوص الادبية باستثناء اختلافات واجتهادات كثير منها غير جوهري - نقول مع كل ذلك ومهما بلغت ترجمة هؤلاء الباحثين من دقة الاداء فانها لا تستطيع ان تنقل لنا الروح الاصلية والمناخ الفكري والعاطفي المميز لتلك النصوص ، شأنها في ذلك شأن الآداب العالمية الأخرى اذا ما نقلت من لغاتها الأصلية الى لغة أخرى ، لاسيما في حالة نتاج أدبي مثل ادب حضارة وادي الرافدين تبعدا عنه الآف السنين . ولعله يمكن القول بهذا الصدد إن نقل النصوص الادبية البابلية الى اللغة العربية يخفف جانباً كبيراً من تلك العقبة . فاللغة العربية اليق اللغات في التعبير الدقيق عن هذا النصوص لأنها أخت اللغة البابلية ؛ فكلتاها من عائلة لغوية واحدة هي عائلة اللغات السامية المتشابهة في تراكيبها اللغوية ومعاني مفرداتها ولفظها ، ناهيك عن التشابه القومي ما بين العرب وبين الاقوام السامية .

٦ - تراث أدب العراق القديم في الحضارات الأخرى :

بالاضافة الى ميزة القدم التي نوهنا بها عن ادب العراق القديم وانه يسبق اقدم ادب عرفه الانسان ، فان لهذا الادب أهمية خاصة في تأريخ تطور الحضارات البشرية والفكر الانساني بوجه خاص ، تلك هي إجماع مؤرخي الحضارة على

عظم التراث الذي خلفه ذلك الأدب في الحضارات القديمة الأخرى والثقافات المعاصرة . فهو على ذلك لا يقتصر على كونه أدباً قديماً مثل دوره في تطور الفكر البشري ومات ، بل انه لا يزال حياً عن طريق التأثيرات التي خلفها في آداب الحضارات التالية .

وإذا كان يتعذر الاستشهاد بالعناصر الحضارية الكثيرة التي انتقلت من حضارة العراق القديم الى الحضارات الأخرى - وإعل القارئ سيقف على طائفة من هذه هذه التأثيرات في اثناء تصفحه النصوص الادبية التي سنعرضها - نقول اذا تعذر ذلك فنكتفي من الموضوع بذكر الاسس المعتمدة في منهج البحث التاريخي فيما يتعلق باقتباسات الحضارات بعضها من بعض ، وقد استطاع الباحثون بانتهاجها البرهنة على الحقيقة التي ذكرناها ؛ ويمكن ايجازها في الاسس الثلاثة الآتية :

أ- إثبات السبق الزمني لادب حضارة وادي الرافدين ، وقد سبق ان برهنا على ذلك .

ب- اثبات وجود الاتصالات التاريخية وتحديد الطرق التي انتقل فيها الكثير من العناصر والمقومات من حضارة وادي الرافدين الى الحضارات الأخرى . وتأتي في مقدمة طرق الاتصال هذه الاتصالات التجارية والحروب والفتوح والاسفار . فقد ثبتت الاتصالات التاريخية ما بين العراق القديم وبين اقطار كثيرة في الشرق الادنى وحتى اقطار نائية مثل سواحل الهند . إذ تشير الاخبار التاريخية والادلة الأثرية الى امتداد فتوح سرجون الاكدي (٢٣٧٠-٢٣١٦ ق.م) واحفاده ولاسيما حفيده « نرام - سين » (٢٢٩١-٢٢٥٥ ق.م) الى اقاليم نائية مثل بلاد الاناضول وكريت وقبرص واقطار أخرى في حوض البحر المتوسط . وازدادت هذه النتوح اتساعاً في العصور التي

تلت العهد الاكدي ولاسيما الفتوح الاشورية الواسعة التي نتج عنها اتصالات بعيدة بين اقوام حضارة وادي الرافدين وبين الاقوام القديمة ومنها بعض فروع القبائل اليونانية في سواحل الاناضول الغربية . وكشفت التحريات الآثرية الحديثة عن بقايا مستوطنات واسعة اقامها الآشوريون في عصرهم القديم (مطلع الألف الثاني ق.م) في الاناضول حيث المركز التجاري الشهير في المدينة القديمة المسماة « كانيش » (وتعرف بقاياها الآن باسم كول تبه بالقرب من قيصرية) (١) وقد عثرنا حديثاً في «لارنكا» في قبرص على مواد اثرية من حضارة وادي الرافدين من بينها اختام اسطوانية يرجع عهد البعض منها الى العصر الاكدي (اواخر الألف الثالث ق.م) (٢)

ج- اما الأساس الثالث فهو اثبات مواطن شبه اساسية في الاحداث والافكار والابطال من أدب حضارة وادي الرافدين في اساطير الامم القديمة وآدابها ، ونترك التبسط في هذا الجانب من الموضوع الى القارئ من بعد وقوفه على النصوص الادبية التي سنعرضها وسيجد فيها الكثير من اوجه الشبه هذه .

٧- والى هذا فان لأدب العراق القديم أهمية وخطورة خاصتين في فهم مقومات حضارة وادي الرافدين وواجهها المختلفة والطابع المميز لها . فان النصوص الأدبية التي وصلت اليانمن هذه الحضارة مثل ملحمة جلجامش وقصص الخليقة والاساطير الخاصة باصل الوجود والأشياء وغيرها من القطع الأدبية التي سنتناولها تعد عند الباحثين منجماً زاحراً يقفون منه على اسس هذه الحضارة واتجاهاتها وعقائدها

(١) راجع عن تأريخ هذا المستوطن التجاري الآشوري وما وجد فيه من سجلات تجارية وشرائع بالخط المساري واللغة الاشورية القديمة في كتابي : « مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة » الجزء الأول (الطبعة الثالثة ١٩٧٣) الفصل الخاص بالآشوريين .

CH.. Gordon, Before The Bible, (1962)

(٢) انظر :

الاساسية ، فهي اصدق ما ينقل اليها احوال اقدم المجتمعات الانسانية وعقائده ونظرتة الى اصل الاشياء والآلهة ونظام الحكم ، كما تصور لنا البيئة البشرية والطبيعية التي نمت فيها تلك الحضارة . فان الدارس لتتاج العراقيين القدماء الادبي يستطيع أن يقف على طبيعة تفكيرهم في الكون والحياة ، ذلك الفكر الذي كان نتاجهم الأدبي مظهراً من مظاهره ووجهاً من اوجهه . وسرى ان النزعة الغالبة على ذلك التفكير الاتجاه الاسطوري الشعري . ومما يقال بوجه عام عن هذا الموضوع إنه باستثناء مواضيع قليلة لايسعنا ان نسمي ما خلفوه فكراً فلسفياً بالمعنى الدقيق لهذا النمط من التفكير الذي يستند الى الاستدلال والنقد والاستنتاج المنطقي والتأمل والنظر في الاشياء نظراً موضوعياً . ومع أنهم عاجلوا في اساطيرهم وانواع كتاباتهم الأخرى قضايا مهمة لا تقل شأننا وخطورة عما كان كما قلنا يشغل الفلسفة اليونانية والفكر الحديث ، بيد أن تفكيرهم في مثل هذه القضايا كان كما قلنا تنكيراً خيالياً اسطورياً وشعرياً . واذا كانت الاساطير والقصص معروفة في الآداب الحديثة الا ان ادباء وادي الرافدين القدامى لم ينظروا الى اساطيرهم على أنها متعة أدبية فنية بل كانوا يعتبرون ان ما فيها من آراء حقائق معتبرة في تفسير الوجود والاشياء . وعلى هذا فينبغي اننا ان ننظر الى اساطيرهم على انها تعبر عن حقائق الكون بحسب آرائهم بالاضافة الى كونها نتاجاً أدبياً . . إنها كانت تفسر لهم نفس القضايا الاساسية التي عالجتها الفلسفة اليونانية باسلوب او منهج موضوعي مستند الى الاستدلال المنطقي . واذا ما وجدنا فيما سندكره من القطع الأدبية تناقضاً في الآراء والمعتقدات عن اصل الكون والاشياء فان ذلك متوقع في التفكير الاسطوري الشعري (mythopoetic) لان التناقض لا يبدو إلا للفكر الموضوعي المنطقي الذي يجاوزه ويسمو عليه خيال الشاعر الفنان ، ذلك الخيال الذي يكون فيه الحد ما بين الاحلام وبين اليقظة

مختلطاً غير واضح المعالم . والواقع إن الرؤى لم تكن أقل نصيباً من الحقيقة من اليقظة ، فكان القوم يحصلون على التوجيه والارشاد الالهي عن طريق اتصالهم بالآلهة في الاحلام .

وإذا ما حاولنا العثور في اساليب تفكيرهم على ما نسميه بقانون « العلية » (Law of Causality) الذي هو أساس منهج العلوم الحديثة فاننا لانجد له آثاراً واضحة . انهم كانوا ينظرون الى علل الاشياء والحوادث من وجهة « من يحدثها » وليس « كيف تحدث » ؟ او « لماذا تحدث ؟ » فمثلا اذا لم ترتفع مياه دجلة كان السبب في ذلك ان النهر أبى أن يرتفع « لغضبه أو لغضب الآلهة التي تحكمه على البشر . وكان حكمهم على الاشياء والحوادث يستند بالدرجة الأولى الى مبدأ التمثيل والقياس (analogy) اكثر من استناده الى الاستنتاج والاستدلال (Inductive and deductive) ويظهر هذا واضحاً في السحر وطرق العرافة والكهانة وتصنيفهم للاشياء على اساس التشابه الظاهري ، مثل تصورهم للسماء على هيئة الأرض والأرض على هيئة السماء ، حتى انهم اعتبروا السماء وكأنها دولة أو مملكة تحكم فيها الآلهة بمراتب ودرجات متفاوتة ويجتمعون في مجالس للشورى ويتخذون فيها القرارات الخطيرة على غرار المجتمع البشري في بلاد وادي الرافدين . كما ان مبدأ التشبيه (Anthropomorphism) الذي تتصف به آلهتهم مشتق من هذا النمط من التفكير (١) .

ومن انماط التفكير الأخرى التي يستنتجها القارئ من بعض القطع الادبية التي سنوردها ما يصح أن نسميه مبدأ « الاسم » الذي بموجبه « لا يمكن لأي شئ أن يوجد ما لم يكن له اسم ، فتسمية الشئ مرادفة لوجوده او إيجاداه . ويظهر هذا واضحاً في اسطورة الخليفة البابلية التي عبرت عن حالة الكون

(١) مبدأ التشبيه تعزى بموجبه الى الآلهة صفات البشر المادية والروحية .

قبل وجود السماء والارض بالقول! « في البدء تسمَّ السماء في العُلا ولم تذكر الارض باسم في الاسفل ». والجدير بالذكر بهذا الصدد أن حضارة وادي الرافدين لم تفرد بهذا الامر ، اذ نجده عند العبرانيين في رواية التكوين في التوراة (١) ، وكان الاسم في تفكير حضارة وادي النيل جوهر الشئى وسر وجوده وقوته ، فكان للآلهة اسماء سرية تكمن فيها قدرتهم وقوتهم فلا يبوحون بها ، وامتدت الفكرة عند سكان مصر القديمة الى اسماء الاشخاص من البشر ، فكانوا يسمون الفرد باسمين ، اسم سرّي واسم آخر هو ما يدعى به بين الناس . وسنرى من اسطورة الخليفة البابلية كيف ان الآلهة اجتمعت في مجلس الشورى وانتخبت الاله « مردوخ » (كبير آلهة بابل) ملكاً عليها ليحارب قوى العماء والدمار الممثلة بالآلهة العتيقة ، ولكي يتمكن من ذلك تنازلت له عن اسمائها ، فصار هذا الاله يحوز على « خمسين اسماً » كل منها يمثل سر القوة والقدرة التي يملكها كل اله ، وفي بعض الحالات كان البشر يستطيعون ان يحوزوا على مافي اسماء الآلهة من قوة ومناعة بمجرد كتابة اسم الاله . واتسعوا في هذا المبدأ بحيث انهم صاروا يرمزون الى الاسماء بالعدد . فمثلا يخبرنا الملك الآشوري سرجون الثاني (٧٢١-٧٠٥ ق.م) عن قصره في المدينة التي ابتناها وسماها باسمه « دور - شركين » (خرسباد الآن) بقوله : « بنيت جدار سورها بمقدار ١٦٢٨٣ ذراعاً وهو رقم إسمي (٢) ولما كان الاسم جوهر الشئى وسر وجوده نشأت عندهم فكرة تسمية الأشخاص والاشياء المحببة باسماء تنطوي على اليمن والقبال الحسن (٣) ونجد ذلك عامماً تقريباً في اسماء الاعلام التي يغلب عليها ان تكون اسماء مركبة تؤلف جملة كاملة

(١) سفر التكوين ٢: ٥-٥

(٢) لعل هذا اصل المبدأ الخاص باعطاء الحروف قيما عددية

(٣) قارن المثل اللاتيني : Momen est Omen

تتضمن اسماء الآلهة . وبالنسبة الى اسماء الاشياء مثل المباني نذكر بعض الامثلة من اسماء الكثير من محلات مدينة بابل وشوارعها ومبانيها مثل اسم شارع الموكب الذي ورد ذكره في النصوص المسمارية بهيئة ! « أي - يعبر - شابو » (ai-ibur-shabu) ومعناه: « عسى ان لا يعبر العدو ». واسم بوابة عشتار الشهيرة : « عشتار - شاكبت - تبيشا » (Ishtar-shabibat-tebisha) اي : « عشتار قاهرة اعدائها »

وخلاصة مايقال بهذا الصدد ان المعتقدات الدينية قد أثرت في أدب العراق القديم بوجه خاص وفي انواع الفنون الأخرى بوجه عام ، شأنها في ذلك شأن الحضارات القديمة الأخرى ، سواء كان ذلك في اشتراك الآلهة باحداث الملاحم البطولية والقصص والاساطير ام في المواضيع والاعراض الدينية المتنوعة كالتراويل والادعية والصلوات التي كانت تؤلف قسماً مهماً من النتاج الأدبي الشعري ، إذ انها كانت تنظم شعراً ! أما النثر ولاسيما النثر الأدبي فقد استخدموه في اغراض ادبية أخرى مثل تدوين الحوادث التار يخية والرسائل الرسمية الملكية وتدوين أعمال الملوك وحملاهم الحربية والشرائع والحكم والامثال والمواعظ .

٨ - الاعداد والتكرار واستباق نتائج الاحداث :

ومن الميزات العامة التي سيلاحظها القارئ لاشهر القطع الأدبية ، مثل ملحمة جلجامش واسطورة الخليقة ، ظاهرة التكرار والاعداد مما يبعث السأم والملل عند القارئ الحديث . فمثلا اذا ارسل أحد الآلهة رسولا ليبلغ أمراً ما الى اله آخر فان الرسول يعيد جميع الابيات التي قالها الاله المرسل مهما بلغ عددها . ومن الطريف ذكره بصدد هذه الميزة ان الباحثين المحدثين قد افادوا منها كثيراً في الاستعانة بها لاكمال مواطن كثيرة قد انخرمت وضاعت عن النصوص الاصلية في الواح الطين

ومهما كان الامر فان أدب العراق القديم لا ينفرد بهذه الظاهرة بل يضاهيه فيها الكثير من آداب الامم القديمة مثل الالياذة والاوديسة . وقد استند بعض الباحثين الى هذه الظاهرة في مثل هذه الآداب العالمية فارجع اصلها الى الانشاد والرواية الشفوية ، حيث كان المنشد يستعين بالتمكرار والاعادة ليستعيد الى ذاكرته ما سينشده من أبيات تالية .

ومن الخصائص الأخرى التي يلاحظها الفاحص لنصوص ادب وادي الرافدين - والمثال على ذلك واضح في ملحمة جلجامش - ما يصح أن نطلق عليه استباق الاحداث او « استباق النتائج » (anticipaton) اي استباق ما ستمخض عنه الرواية او القصة والتنويه بالنهاية والحل . ففي ملحمة جلجامش مثلاً تبدأ الرواية بديباجة في التعريف ببطل الرواية والتغني بامجاده ، وتنوه ايضاً بمجمل موضوع الرواية وخاتمها . ونجد ما يضاهي هذا في الملاحم العالمية المشهورة مثل الالياذة والاوديسة والملحمة الجرمانية المسماة « اغاني النييلونك » (١) والمرجح أن يكون تفسير هذا في تحريك السامع وتشويقه الى احداث الرواية ، ولعله يمكن تشبيه هذا الاسلوب من الفن القصصي القديم باساليب العرض السينمائي الحديث ، حيث يبدأ بعض الافلام بلقطة من خاتمة الرواية او من اهم احداثها ثم تبدأ حوادث الرواية بالتسلسل وتنتهي بالمشهد الذي بدأت به . واستنادا الى هذه الظاهرة فان حقيقة كون بداية ملحمة جلجامش او ديباجتها مضاهية لخاتمها دليل على ان النصوص التي وصلت الينا منها تمثل الملحمة كاملة تقريباً .

Niebeliungenlied

(١) ملحمة جرمانية مشهورة في آداب القرون الوسطى وتدور احداثها ، مثل ملحمة جلجامش ، على مغامرات البطل « سيفريد » في ارض الظلام مع ملوكها البورغنديين وقتلهم اياه ثم ثار زوجته له . . . الخ

٩ - الفهارس والسجلات والمكتبات :-

اعلنا لانبالغ اذا قلنا ان حضارة وادي الرافدين فاقت معظم الحضارات القديمة في كثرة التدوين الذي شمل جميع شئون الحياة الخاصة والعامة تقريباً . وتميز بعض عصورها بضخامة ماجاء اليها من الواح الطين التي اعلها تجاوز المليون لوح كما ذكرنا مما كشف عنه لحد الآن من العهود المختلفة مثل عصر سلالة اور الثالثة (٢١١٢-٢٠٠٤ ق.م) ، لعله في حدود ٣٠٠٠٠ الى ٤٠٠٠٠ لوح والعصر البابلي القديم (٢٠٠٠-١٥٠٠ ق.م) في حدود ٥٠٠٠٠ الى ٧٠٠٠٠ لوح والعصر الآشوري الحديث مايناهاز ٨٠٠٠٠ لوح ثم العصور المتأخرة مثل العصر البابلي الحديث (منتصف القرن السادس ق.م) والعصر الفارسي الاخميني (٥٣٩ - ٣٣١ ق.م) والعصر السلوقي والفارسي (٣١١ ق.م - ٢٢٦ م) .

وبالنسبة الى التدوين بدأت غزارة النصوص الادبية منذ العصر البابلي القديم وسرى من تلخيص بعض القطع الأدبية كثرة النسخ التي خلفها كتبة العراق القديم في الازمان المختلفة ابتداء من العصر البابلي القديم المار الذكر . ولعل ابلغ مثال نسوقه في تأريخ التدوين والولع بجمع النصوص المختلفة لشتى صنوف المعارف التي اشتهرت بها حضارة وادي الرافدين خزانة كتب الملك الآشوري الشهير « آشور بانيبال » (٦٦٨-٦٢٦ ق.م) في نينوى حيث كشفت التنقيبات القديمة فيها (منتصف القرن التاسع عشر) عن مجاميع ضخمة من الواح الطين التي حوى الكثير منها كنوزاً من ادب حضارة وادي الرافدين وهي نسخ من نصوص اقدم عهداً ، وقد نظمت في المكتبة الملكية في مجموعات حسب موضوعاتها كما سنوضح ذلك بعد قليل .

ويجدر أن نشير بهذا الصدد الى ان احد الباحثين اكتشف في السنوات القليلة الماضية بعض النصوص التي تدل على وعي أدبي في فهرسة القطع الادبية ، فقد وجد من بين الواح الطين التي عثر عليها في مدينة « نقر » في اثناء التحريات القديمة فيها لوحان احدهما موجود الآن في متحف اللوفر (باريس) والآخر في متحف جامعة فيلادلفيا ، وهما يتضمنان عناوين مؤلفات أدبية سومرية . ويحتوي لوح فيلادلفيا على ٦٢ عنواناً ولوح اللوفر على ٦٨ عنواناً ، واذا اخرجنا ٤٣ عنواناً مشتركاً في اللوحين فيكون عدد العناوين المسجلة فيهما ٨٧ عنواناً لنصوص ادبية امكن تعيين ٢٨ تأليفاً منها حيث وجد اصله الكامل في الالواح المكتشفة سابقاً (١) .

١٠- أثر مادة الكتابة في اسلوب التدوين :

وكان لمادة الكتابة ، وهي الطين الذي كان المادة الرئيسية في التدوين، أثر كبير في اشكال المدونات المختلفة وفي مقدمتها النصوص الادبية وطريقة جمعها وفهرستها وتسلسلها . فعلى ما هو معروف لايمكن تدوين نصوص مطولة على لوح واحد من الطين مهما بلغ كبره حيث لايمكن استعمال لوح يتجاوز حجم الآجرة على اكثر تقدير . اما في حالة النصوص والعقود التجارية والرسائل وغيرها من شؤون الحياة الاعتيادية فكان يكفي لوح واحد لاستيعابها . وحلت مشكلة تدوين النصوص الادبية والتأريخية المطولة بطريقتين :

١- تدوين النص المطول في عدة الواح ترتب على هيئة سلسلة متتابعة ويذيل

(١) درس هذين اللوحين ونشرهما الاستاذ « كرامر » انظر :

S.N. Kramar, "The Oldest Literary Catalogue" in Bulletin of The American Oriental Society, No.88 (1942); Sumerian Mythology, (1944), p. 14

كل لوح منها بعنوان السلسلة العام مع رقم تسلسله وبداية السطر الذي يبدأ به اللوح التالي . وكانت كل مجموعة من هذه السلاسل من النصوص الأدبية تحفظ في رفوف اوني اوعية (جرار) من الفخار ويعلق فيها عنوان المجموعة الذي يسجل على لوح صغير من الطين . وهكذا وصلت اليها ملحمة جلجامش الشهيرة مدونة على اثني عشر لوحاً ، واسطورة الخليقة على سبعة الواح . وجرت عاداتهم في عناوين مثل هذه المجموع الأدبية ان تعنون كل مجموعة باول عبارة أو شطر من الشعر فيها . فمثلاً جعلوا عنوان ملحمة جلجامش : « شا نَقْبًا إهورو » (sha naqba imuru) اي : « هو الذي رأى كل شئ » ، من سلسلة جلجامش (إشكار جلجامش) ، مكتبة قصر آشور بانيبال . وعنوان مجموعة اسطورة الخليقة : « إينما إيليش » او « حينما عيلش » (enuma elish) اي « حينما في العلا » ؛ وعنوان شريعة حمراي الشهيرة « إينو (حينو) أنتم صيرُم » (inu Anum serum) اي : « حنما أنو المبجل » .

ولعله من المفيد ان تتمم هذه الملاحظات عن عناوين المؤلفات الأدبية بذلك ماجاء اليها من عناوين بعض القطع الأدبية السومرية المشهورة ، حيث درج المؤلفون والنساخ كما ذكرنا على تذييل مثل هذه القطع بعناوينها الخاصة ، فصنف من أدب المناظرة او المفاخرة الذي سنذكر نماذج منه عنوانه بالسومرية : « آدمَن - دوكا » (ADAMAN-DU-GA) وصنف من المؤلفات الأدبية اطلق عليه عنوان « اندو لوكا » (ANDULUGAL) وهو ضرب من التراتيل والمدائح التي كانت تنظم لمدح الملوك والحكام . وهناك صنف من الاشعار الغنائية والترانيم اطلق عليها بالسومرية مصطلح « شِرْ » او « سِرْ » (SIR) المضاهية للكلمة السامية « شير » و « شيرو » والعربية « شعر » ، ولكن لا يعلم بوجه التأكيد ايها أصل للأخرى ، وذكرت جملة انواع من هذه الترانيم المصدرة بكلمة « شِرْ » ولكن

لا تعرف ماهيتها مثل «شِر-نمنار» (SIR NAMNAR) و «شِر-خامن» (SIR HAMUN) و «س-رنام كالا» (SIR - NAM-GALA) اي اغاني كهنة ال « كالا » ونوع من الاغاني يعنى حرفيا « ترانيم الرعاة للالهة إنانا » (SIR-NAM-SIPAD-INANNA) وانواع اخرى من الاغاني والترانيم تصدر بالكلمة السومرية « أدب » (ADAB) والكلمة « تيكي » ولا يعرف معناها بوجه التأكيد ولعل الأساس في تصنيفها أنها كانت تنشد على الآت موسيقية ذات عدد خاص من الاوتار وصنف آخر يسمى بالسومرية « بلباله » (BALBALE) وهو نوع خاص من الاغاني ايضاً ، وقد ذيلت بها بعض القطع الأدبية من نوع الحوار (dialogue) وصنف آخر يرجح أن يكون أدب الرثاء والندب اطلق عليه بالسومرية « بلاك » (BALAG) (١) ، جاءت الينا قصائد سومرية قليلة في الرثاء وبوجه خاص رثاء تدمير المدن ومراكز العمران مثل رثاء سقوط مدينة « اور » قد.

إن هذا الاسلوب الذي اشرنا اليه في طريقة حفظ النصوص الادبية له صلة وثيقة باصل نظام المكتبات وحفظ السجلات (الارشيفات) حيث كانت المجموعات المختلفة من الواح الطين والمفهرسة على الوجه الذي ذكرناه تودع في حجرات خاصة من المعابد والقصور والبيوت وقد كان بعضها يحتوى على عشرات الالوف من الوثائق والسجلات مثل مكتبة « آشور بانيبال » في نينوى التي سبقت

(١) بالاضافة الى المراجع السابقة التي استشهدنا بها انظر المصدرين الآتين :

1. Falkenstein und Von Soden, Sumerische und Akkadische Hymnen und Gebete,(1956), 20ff.
2. Hallow, "The Cultic Setting of Sumerian poetry " in Rencontre Assyriologique Internationale, xv111 (1969), 1971, 166ff,

الإشارة إليها مراراً ، وغيرها من دور الألواح أو دور الكتب البابلية والآشورية في كبريات المدن القديمة . وكان بعضها مثل مدينة « نقر » مركزاً كبيراً للتعليم والاستنساخ والجمع حيث مدارس الكتابة المتمرسين في مختلف اصناف المعرفة .

٢- اما الاسلوب الثاني في تدوين النصوص الادبية المطولة على الطين ولا سيما النصوص التاريخية مثل حوليات الملوك واعمالهم العمرانية والعسكرية فكان يتم باستعمال مناشير (prism) واساطين (Cylinder) من الطين كبيرة الحجم نوعاً ما . ومع ان استعمال الاساطين بوجه خاص كان معروفاً في بلاد بابل في العهد السومري المتأخر (مثل عصر جودية اواخر الألف الثالث ق.م) الا ان استعمال المناشير واستعمال الاساطين بكثرة ظهر عند البابليين والآشوريين في ادوارهم الأخيرة منذ القرن الثاني عشر ق.م بوجه التقريب وكانت مثل هذه المناشير والاساطين تستوعب نصوصاً مطولة بحيث انها تضاهي حجم كتاب صغير او كراس كبير .

ويجدر ان نلاحظ بمناسبة ذكر الكتاب ان اصل « الكتاب » لا يمكن أن يرجع الى هذه الطرق من التدوين التي اتبعت في حضارة وادي الرافدين ، فان مادة الكتابة فيها ، أي الطين ، لا يمكن ان يؤلف منها كتاب ، ولعله يمكن حصر اصل الكتاب في تأريخ الحضارات البشرية في احتمالين : الاحتمال الأول ان الكتاب نشأ من استعمال لفات ورق البردي الذي اختصت باستعماله حضارة وادي النيل ، إذ المعروف مما جاء الينا من هذا النوع من الورق ان لفات البردي كانت تستوعب نصوصاً مطولة من الكتابة ، ولعل مما يؤيد هذا الاحتمال اصل تسمية « كتاب » في اللغات الأوروبية وهي التسمية المشتقة من الاغريقية

« بليون » (biblion) ومنها تسمية المكتبة « بيبليوتيك » (bibliotheca) وهي كلمة مأخوذة من اسم المدينة الفينيقية « ببلوس » (جبيل) ، لان الاغريق كانوا يستوردون ورق البردي المصري عن طريق تلك المدينة .

اما الاحتمال الثاني عن اصل نشوء الكتاب فانه يرجع ، بالاضافة ورق البردي ، الى ما كان يستعمله الاشوريون من الواح الخشب او العاج الرقيقة والكتابة عليها بعد طلي سطوحها بالشمع ، وكانوا يوصلون جملة الواح منها بمفاصل من اسلاك النحاس فيكون كل لوح بمثابة صفحة كتاب ومجموع الالواح بين دفتين يؤلف الكتاب ، وقد وجد حديثاً في اثناء التنقيبات البريطانية في مدينة « نمرود » (كالح القديمة بالقرب من الموصل) نماذج من هذه الالواح ومما لاشك فيه ان الوفاً من هذه الالواح قد بليت بمرور الزمن فلم تصل الينا (١) والمعروف ايضاً ان الكتبة الآشوريين استخدموا بالاضافة الى هذه الالواح الرقوق الجلدية (parchment) كما تشير الى ذلك الصورة الممثلة في المنحوتات الآشورية .

١١- اسماء المؤلفين والادباء والشعراء :

نهي هذه الملاحظات العامة عن أدب حضارة وادي الرافدين باثارة تساؤل مهم كثيراً ما يتوارد الى اذهان قراء القطع الادبية المشهورة التي وصلت الينا من هذه الحضارة ، الا وهو من كان اولئك الادباء والشعراء الذين خلفوا لنا تلك الروائع الأدبية ؟ والاجابة على هذا التساؤل بوجه الايجاز هو اننا اذا استثنينا بعض الحضارات القديمة وبوجه خاص الحضارتين اليونانية والرومانية ، فان القاعدة العامة في تلك الحضارات ومنها حضارة وادي الرافدين ان يندر ذكر

(١) راجع عن هذه الالواح :

Wiseman "Assyrian Writing Boards" in IRAQ, 17 (1955), 3ff.

اسماء المؤلفين بوجه عام ومنها اسماء مبدعي القطع الأدبية (١) ، وانه اذا جاء
الينا بعض النصوص الادبية وهي مذيلة باسماء اشخاص فالغالب فيهم أن يكونوا
نساخا او جامعين ، وقد يكون البعض منهم ، ولا سيما في حالة النسخ القديمة ،
مؤلفي القطع الأدبية او واضعيها او منقحيها بشكلها النهائي . واعلمه يمكن تفسير
هذه الظاهرة من اغفال اسماء المؤلفين والادباء بان القسم الاعظم من النتاج
الأدبي في حضارة وادي الرافدين نشأ ونما على هيئة تراث قومي شاركت في انتاجه
اجيال كثيرة من الشعراء ولم يتفرد بانتاجه اديب واحد على غرار مانعرفه في
الآداب الحديثة ، ولعل شأنه في ذلك شأن الملاحم القومية المشهورة والقصص
الشعبية مثل الف ليلة وليلة والالباذة والاولديسة اللتين تنسبهما المآثر اليونانية الى
هوميروس .

وهناك بعض الحالات القليلة التي يرجح فيها ان يكون الاشخاص المذكورة
اسماؤهم في ذيل بعض القطع الأدبية مؤلفي هذه القطع نذكر منهم -
الاسماء الآتية :

١- احد جامعي ملحمة جلجامش الذي ورد اسمه في احدى نسخ الملحمة
على هيئة « سين - ليقني - اونني » (Sin-leqe-uninni) (٢)
والمرجح أن الصيغة النهائية التي جاءت الينا فيها الملحمة تعزى الى هذا
المؤلف من حدود ١٢٥٠ ق.م .

(١) انظر حول الموضوع :

Lambert, "Ancestors, Authors and Canonicity" in Journal
of Cuneiform Studies, x1 , (1957), 1ff.

(٢) انظر المصدر السابق (JCS x1 (1957,pl.11,l.10) حيث جاء اسمه في نسخته في لوح
من العهد السلوقي وجد في الوركاء (انظر تقرير التنقيبات عام ١٩٦٢ ص ٤٣) وعبارة :
« طبق سين - ليقني - اونني » الكاهن من صنف « ممشو (ماش-ماش) .

٢- مؤلف اسطورة اله الطاعون « إيسرا » وقد جاء اسمه بهيئة « كبتى - إيلانى - مردوخ » ، ويذكر هذا الشخص ان الاله « مردوخ » نفسه ظهر له في الحلم واملى عليه القصيدة ولما استيقظ دونها بدون ان يضيف اليها او ينقص منها شيئاً .

٣- مؤلف ثالث يقترن اسمه بقطعة أدبية مشهورة سيأتي شرحها تصنف بما يصطلح عليه « العدل الالهى » (Theodicy) ، وهي على هيئة حوار طريف ما بين متشكك في العدالة الالهية وبين عبد صالح ، وقد ذكر اسمه بطريقة الصناعة الادبية اللفظية التي يطلق عليها مصطلح (acrostic) او (alleteration) وفحواها انا اخذنا المقاطع الأولى من كل بيت من ابيات القصيدة وجمعناها بعضها الى بعض فانها تؤلف اسم منشئ القصيدة مع مهنته ودعاء الى احد الآلهة نصها ؛ « انا ساگل - كينام - اوبب (Saggil-kinam-ubbib) الكاهن المعوذ ، خادم الاله والملك » .

٤- ناسخ او مؤلف احدى قصص الطوفان البابلية المعنونة « اترأ - حاسس » الذي ذكر بهيئة « كو- آي » ، من زمن احد ملوك سلالة بابل الأولى المسمى « عمى - صادوقاً » .

• • •

الشعر والنثر الادبي

على ضوء ما اوردناه من ملاحظات تمهيدية عن ادب حضارة وادي الرافدين نتناول الآن الموضوعات الاساسية عن هذا الادب فتتکلم عن :

١- الشعر والنثر الادبي .

٢- المواضيع التي تناولها ذلك الأدب سواء كان شعراً أم نثراً وتعداد اشهر النصوص الأدبية التي وصلت الينا .

١- الشعر :

ستكون ملاحظتنا عن الشعر في حضارة وادي الرافدين (١) منصبة بالدرجة الأولى على الشعر البابلي ، اي الشعر الذي نظمه شعراء العراق القديم باللغة البابلية (السامية) لأن معرفتنا باللغة البابلية وشعرها اكمل واوفى من معرفتنا بالشعر السومري ذلك لأن الباحثين مازالوا غير متأكدين من لفظ الكثير من الكلمات السومرية على الرغم من معرفتنا بمعاني الكثير منها ، ولذلك فلا يمكن الوقوف على اوزان

(١) لايسعنا الخوض في ماقيل من نظريات وآراء عن الشعر عندالانسان فيكفي التنويه بان الشعر كان على مايرجح اول مازاوله الانسان من الفنون الأدبية ، وان منشأه من الانشاد والغناء الشعبي . فالغناء على ما يذهب اليه معظم الباحثين ، أصل الشعر في جميع الآداب العالمية . ولعل ما يؤيد ذلك بالنسبة الى اللغات السامية ان كلمة شعر المستعملة فيها بما يطابق اللفظ العربي تقريباً ، تعني في اصل ما وضعت له الغناء والانشاد مثل « شيرو » البابلية و « شير » العبرانية و « شور » الارامية وكلها فقدت حرف العين ، ومن ذلك المصطلح العبراني « شير هشريم » (نشيد الانشاد المنسوب الى سليمان في التوراة) ، ومن قبيل هذا ماجاء في المآثر العربية عن اصل العروض والوزن في الشعر العربي انه من الغناء وحذاء الابل ، والمصطلح الادبي المؤلف في رواية الشعر : « وانشد فلان » . هذا ولا يعلم بوجه التأكيد علاقة الكلمة البابلية « شيرو » بالكلمة السومرية التي مرت بنا اي « سر » او « شر » (SIR) التي تعني الغناء وقد سبق ان ذكرنا انها تصدر بها جملة قصائد شعرية سومرية من نوع الاغاني والتراتيم ، فهل هي أصل الكلمة البابلية ثم الكلمات المضاهية في اللغات السامية الأخرى أم انها مأخوذة من الكلمة البابلية السامية التي هي الاصل .

الشعر السومري بحسب معرفتنا الراهنة . ويختلف الحال بالنسبة الى اللغة البابلية وشعرها بالنظر الى مانوهنا به سابقاً من وشائج القربى القوية ما بين اللغة البابلية وبين لغات سامية أخرى معروفة ومحكية في عصرنا الراهن ، وفي مقدمتها العربية والارامية والعبرانية . وسنقف على اوجه الشبه الكثيرة بين مبادئ الشعر البابلي والشعر العربي مثل الوزن وفن التأليف والنظم .

وإذا تجاوزنا مناقشة ماهو الشعر وماهي اسسه ومقوماته ولا سيما في الاتجاهات الأدبية الحديثة ، فإننا نسير في تحديد مفهوم الشعر في النصوص الأدبية التي خلفتها حضارة وادي الرافدين على الأسس والمبادئ الماثورة (الكلاسيكية) المتبعة في دراسة الآداب العالمية وتصنيفها الى شعر ونثر أدبي ، ولاسيما المبادئ الاساسية الآتية : -

- ١- وجود الايقاع الخاص اي العروض والوزن (meter. rhythm) .
- ٢- اتباع نظام خاص في تأليف هذا الكلام الموزون من حيث تقسيمه الى وحدات صغيرة وضم هذه الوحدات في مجموعات اكبر منها ، كالشطر والبيت والبيتين والاربعة ابيات والقصيدة . . .
- ٣- انتقاء مفردات لغوية خاصة بلاغية ، اي ما يسمى بالالفاظ الشعرية من ناحية الجرس اللفظي والمعنى بالنسبة الى مقاييس اللغة التي ينظم فيها الشعر . ويدخل ضمن هذا تركيب خاص في الكلام يختلف عن الاستعمالات المتبعة في النثر .
- ٤- الموضوع او المحتوى الذي يتناوله الشعر والتعبير عن ذلك بتعاير مؤثرة في السامع او القارئ .

٥- اما المبدأ الخامس وهو القافية (Rhyme) فلم يلتزم به في شعر حضارة وادي الرافدين ، فكان هذا الشعر ، سواء كان سومرياً أم بابلياً ، موزوناً ولكنه غير مقفى . والقافية ، على ما هو معروف ، ليست من الشروط الاساسية للشعر ؛ فهناك انماط من الاشعار العالمية القديمة والحديثة لم تلتزم القافية ، مثل الشعر اليوناني والعبراني واللاتيني ، وما يسمى في الادب الانجليزي بالشعر المرسل (Blank Verse) مثل الكثير من شعر شكسبير .

العروض في الشعر البابلي :-

يعتمد العروض ، أي الوزن ، في الشعر البابلي ، مثل اشعار بعض الامم الأخرى كالشعر العربي واليوناني واللاتيني وغيرها ، على مبدأ تجزئة الكلمات الى مقاطع (Syllables) التي تتناوب ما بين المقاطع الطويلة والمقاطع القصيرة اي بحسب مصطلحات عروض الشعر العربي « الاوتاد » و « الاسباب » التي اساسها الحركة والسكون(*) ، وفي بعض الاشعار الأخرى النبرات او التشديد والتخفيف (accented, unaccanted) . ويجمع عدة مقاطع يتألف ما يصطلح عليه في الشعر العربي « التفعيلات » اي ما يضاهاى (foot) في الشعر الانجليزي ، ثم جمع عدة تفعيلات يتكون منها شطرا البيت . وعلى هذا الشكل جاء

(١) يعرف العروضيون السبب بان قوامه حرفان :-

أ - السبب الخفيف ، حرفان متحرك وساكن مثل « من » « عن » الخ .

ب- السبب الثقيل : حرفان متحركان ، « مثل » « بك » « لك » الخ

اما الوتد فقوامه ثلاثة احرف :-

أ - الوتد المفروق ، حرف ساكن بين حرفين متحركين مثل « أين » « كيف » الخ

ب- الوتد المجموع : حرفان متحركان يليهما ساكن مثل « إلى » « على » الخ .

البيت ، اي ماين الصدر والعجز ، وما بين الوحدات الشعرية الاكبر في بعض الاحايين .

اما عدد بحور الشعر البابلي (١) ومضاهاة هذه البحور لاوزان الشعر العربي فانه موضوع بحث خاص وطريف وجدير بالدرس من جانب العروضيين العرب ويكفي في هذه المقدمة التمهيدية ايراد بعض الابيات من القصائد البابلية الشهيرة . وقد سبق ان بدأنا هذه المقدمة بثلاثة أبيات من قصيدة المحاورة ما بين السيد وعبد . ونضيف الى ذلك نماذج اخرى نثبتها بلفظها البابلي بالحروف اللاتينية والعربية وترجمتها العربية :

١ - البيتان الاولان من قصيدة اسطورة الخليفة :

enuma elish la nabu shamamu

shaplish ammatum shuma la zakrat

وبالحروف العربية مع محاولة ارجاع الاصوات الحلقية المفقودة من البابلية

والمراذفة للعربية :

(١) عن اوزان الشعر البابلي ولا سيما في ملحمة جلجامش واسطورة الخليفة راجع البحوث الآتية :-

De Liage Bohl, "La metrique de l'Epopée babyloienne" in *Rencontre Assyriologique Internationale*, v11, (1958)

وعن الشعر السومري والبابلي بوجه عام وقدم هذا الشعر :

Falkenstein und Von Soden, *Sumerische und Akkadische Hymnen und Gebete*, (1956).

Hallow, "The Cultic Setting of The Sumerian poetry" in *Rencontre Assyriologique. . .* xv11, (1969) 116ff.

Hallow, "On The Antiquity of Sumerian Literature" in *JAOS*, (1963), 167ff.

حِينَما عَيْلِش لا نَبُو شَمَامو
شَإِپْئِيش أَمْتُمْ شوْمَا لا زكْرَة

وترجمتها : حينما في العلاء لم ينبأ عن السماء (لم تسم باسم) وفي الاسفل لم تذكر الارض باسم .

٢- وتأخذ مثالا آخر من ملحمة جلجامش ، وهي الابيات المتضمنة خطاب صاحبة الحانة الى جلجامش مبينة له عبث مايسعى اليه من نيل الخلود :

sabitum ana shshum izakkara ana Gilgamesh
Gilgamesh esh Tadal
baltam sha Tasahhura la Tutta
inuma ilani ibnu awilitam
matam ishkunu ana awilitin
baltam ina qatishunis issabtu
atta Gilgamesh lu mali karashka
urri u mushi hiddadu atta

ونادية اصواتها بالحروف العربية -

سابيتُمُ انا شاشُمُ • لِزَ كَرًّا انا جلجامش
جلجامش ايش تَدال
بَلطَمُ • شاتسخورا لا تَتَّا
حِينُما ايلاني ابنو اويليتُمُ •
ماتَمُ اِشكونوا انا اويليتِمُ •
بَلطَمُ انا قاتيشيونو اِضَبَطوا

أتا جلجامش لو ملكتي كرسكا
اورتي و موشي خدآدو أتا

وترجمتها :

قالت صاحبة الحانة سايتيم (١) بلجلجامش
ياجلجامش أي شئ تسعى إليه ؟
الحياة التي تنشأ لن تجدها
فحينما خلقت الآلهة البشرية
قدرت الموت على البشرية
وضبطت الحياة بأيديها
فانت ياجلجامش ليكن كرسك مملوءاً
وافرح نهار مساء

٣- ونورد نموذجاً ثالثاً من خطاب جلجامش الى الصياد حين أمره أن ينطلق
الى « انكيدو » ويصطحب معه بغياً لاغرائه واستدراجه من البادية الى مدينة
الوركاء حيث يحكم جلجامش :

alík sayyadi itti-ka harimtu shamhat urima
enuma bulam ishaqu ana mashqe
shi lishhut lubushi-sha-ma lipta quzub-sha
immar-shi-ma itihha ann shashi
inakkirsuh bul-shu sha irbu eli seri-shu

وفي الحروف العربية

ألك صيادي إتيكا خارمتم شمخة أورما

(١) سابينو (سايم) ، بائمة الخمر ، من مادة « سبأ » ، « والعربية » سبأ بائع الخمر .

حينما بولم إشاكو أنا مَشَقِي
شِيي لِشِخْطُ لبوشيشاما لِفَتْحِ قُضْبُنَا
إمّا رَشِيمَا إِطْحَا أَنَا شَاشِي
إِنْكَرُّ شُو بُو لُشُو شَا إِرْ بُو عَلِي صِيرِيشُو (صَحْرُ يَشُو)
وترجمتها :

انطلق ياصيادي واصطحب معك بغياً مومساً (١)
حينما (يأتي) ليسقي الحيوانات من المسقى (مورد الماء)
لتخلع لباسها وتكشف (تفتح) عن عورتها (قضيبها)
فاذا ما رآها وقع عليها (طاح عليها)
وعندئذ ستنكره حيواناته التي ربيت في صحرائه

ونختتم هذه الملاحظات الموجزة عن الشعر البابلي بذكر بعض الامور الأخرى
الموضحة مما يتعلق بأسلوب تأليف الشعر واجزائه . فبعد تأليف البيت الواحد يجمع
عدة تفعيلات ، كما ذكرنا ، كان الناظمون يجمعون جملة أبيات لتأليف وحدات
شعرية اكبر ، بعضها من بيتين (دوبيت Couplet) أو اربعة ابيات (الرباعيات)
Quartet وبعضها من اكثر من اربعة أبيات مثل الدور او الموشح . Stanza
والغالب أنهم كانوا يراعون في هذا الجمع والتأليف وحدة المعنى ، مثل توضيح
فكرة خاصة او تكميلها او توكيدها . فقد يكون معنى البيت الثاني في الدوبيت
مكملاً او موضحاً لمعنى البيت الأول او رجعاً وصدى لمعناه كما في البيتين التاليين

(١) تترجم كلمة « شمخة » في الغالب مومس ، وقد ارتأيت في ترجمتها في الطبعة الثانية من ملحمة جلجامش
(وزارة الاعلام ١٩٧١) بانها اسم للبغي كما ذهب الى ذلك احد الباحثين انظر .

C. Gordon, Before The Bible, (1962),

من ملحمة جلجامش : (١)

« صرخت عشتار كالمرأة في الولادة »

« انتحبت سيدة الآلهة بصوت شجي »

وقد يكون من المفيد ان نورد هذين البيتين بلفظهما البابلي في الحروف اللاتينية

والعربية :-

Isishshi Ishtar kima aliddi
unamba belit- " Ilani Tabat rigma

« إسيشي عشتار كما أليدي »

أونمبا بعلة إيلاني طابت ركتنا »

او ان يكون البيت الثاني مغايراً ومفارقاً لمعنى البيت الأول تمهيداً لتدرج
موضوع القصيدة العام ، والمثال على ذلك البيتان الأولان من اسطورة الخليقة
الليذان استشهدنا بهما في شرح عروض الشعر البابلي اي :

« حينما في العلاء لم ينبأ عن السماء

« وفي الاسفل لم تذكر الارض باسم »

وللمثال على وحدة معنى الابيات الأربعة اي الرباعيات نقتبس الرباعية التالية
من اسطورة الخليقة ، وهي الابيات التي جاءت على لسان الالهة « أبسو » ،
زوج الالهة « تيامة » في تبرير عزمه على القضاء على ابنائه من جيل الآلهة الحديثة
إذ يقول :-

امرضتني اعمالهم

فلا استريح نهائياً ولا استطيع النوم في المساء

(١) في هذا الاسلوب من النظم والتأليف اثر واضح من الشعر السومري ، وهو موضوع لا مجال للخوض فيه
في هذه المقدمة التمهيدية ، على ان القارئ سيقف على هذا الامر من الامثلة المترجمة التي سنوردها
لبعض القطع الشعرية السومرية .

لاقضين عليهم واضح حدأ لاعمالهم

لكي يعم السكون فنستطيع النوم»

وبلفظها البابلي :

imtaras alkat-sunu elia
urra la shupshuhak mushi la sallak
lushhaliq-ma alkat-sunu lu shappik
qulu lishshakin i nislal ninu

وبالحروف العربية

« إمترص ألكات - سونو عليا

أورآ لا شيشونخاك ، موسى لا صلاك

لشخالق - ما ألكات - سونو لو شپتك

قولو ليشاكن إي نصلال نينو (نحن)

لغة الشعر والتعبير الشعري

بالإضافة الى ماسبق ان اوجزناه من الخصائص الاساسية التي تميز الشعر البابلي كالعروض وطريقة التأليف والجمع والتعبير اللغوي الخاص ، فان هذا الشعر يشارك الاشعار العالمية الأخرى في الخاصية الأخيرة ، أي اختيار الالفاظ الشعرية المعبرة . ولكل لغة مفرداتها والفاظها واستعمالاتها الشعرية المتعارف عليها بين ابناء تلك اللغة . كما ان الكلام الشعري ، على ما هو معروف في الشعر العربي والاشعار ، الأخرى يتميز في نمط تركيبه عن الاساليب المتبعة في النثر ، ومن ذلك التحرر نوعا ما من الالتزام بقواعد التركيب في لغة النثر والتحليل من الكثير من قيوده ، كالتقديم والتأخير في أجزاء الكلام لاحداث الانطباع او التأثير الشعري الخاص ولضرورة الوزن ، حيث كما قيل «يجوز في الشعر ما لا يجوز في النثر»

وهنا قد يتساءل القارئ كيف نستطيع أن نميز التراكيب والمفردات الشعرية في أدب العراق القديم وقد مضى على النتاج الادبي الذي جاء الينا من القوم الوف كثيرة من السنين تبعدنا عن تفهم اذواق ذلك العصر اللغوية الأدبية ؟ إن هذا التساؤل يمكن ان يثار أيضاً بالنسبة الى اشعار الكثير من الامم القديمة الأخرى والاجابة عليه بالايجاز ان التعرف التام على تلك الحضارة والامام باسرار اساليبها اللغوية واتباع منهج المقارنة بين الاساليب النثرية وبين الاساليب الشعرية كل هذا يمكن الباحث المختص من ان يتميز ما بين الاسلوبين الشعري والنثري الاعتيادي المستخدم في النصوص الكتابية الأخرى مما جاء الينا من مدونات حضارة وادي الرافدين . ولعل اوضح مثال نختاره لتوضيح هذا الامر الاستشهاد بنصوص وثيقة تاريخية مشهورة في تأريخ العالم ، هي شريعة حمورابي (١٧٩٢-١٧٥٠ ق.م) ، والسبب في هذا الاختيار اننا نجد الاسلوبين الشعري والنثري وهما مستعملان في الوثيقة نفسها . فكما هو معروف تنقسم هذه الشريعة الى ثلاثة اجزاء متميزة هي :

١- مقدمة الشريعة (Prologue)

٢- مواد الاحكام القانونية .

٣- خاتمة الشريعة (Epilogue) .

ففي الجزء الثاني ، أي القسم المخصص لمواد الاحكام ، نقف على اسلوب الصياغة النثرية من حيث الالتزام بقواعد تأليف الكلام وفق قواعد اللغة الاكديّة في عصرها البابلي القديم (الألف الثاني ق.م) . ويجدر بنا أن نذكر بهذه المناسبة ان العرف الجامعي جرى على تدريس مبادئ اللغة البابلية للمبتدئين بتدريسهم هذه الشريعة من الناحية اللغوية حيث الانتظام والاطراد في التزام قواعد هذه اللغة .

وبالمقابلة مع الاسلوب اللغوي الخاص بقسم مواد الاحكام من الشريعة ، نجد لغة القسمين الآخرين اي المقدمة والخاتمة تختلف اختلافاً بيناً عن لغة القسم الأول لأنهما دونتا بالاساليب الشعرية سواء كان ذلك في انتقاء الالفاظ الشعرية - وبعضها الفاظ قديمة - أم في فن التأليف وتركيب الجمل من تقديم وتأخير أم من ناحية المعنى العام والتعبير الشعري المؤثر . وبعبارة أخرى ان مقدمة شريعة حمورابي وخاتمتها قد دونتا باسلوب النثر الادبي او الشعري الذي لا يلتزم بالوزن والعروض ، كما لا يتقيد بما ذكرناه من اساليب النظم او التأليف الشعري في وحدات كالبيت والبيتين والاربعة أبيات .

وبالاضافة الى ما استشهدنا به من مقدمة شريعة حمورابي وخاتمتها بكونهما نثراً شعرياً ، خلف لنا أدباء العراق القديم نصوصاً أخرى في النثر الشعري او النثر الادبي تفوق في روعة اسلوبها وتعبيراتها المؤثرة ووصفها التصويري الكثير من القطع الشعرية الصرفة ، ومن قبيل هذه النصوص بعض ما يسمى بالنصوص الملكية (Royal Inscriptions) ، ولا سيما حوليات الملوك واخبار حملاتهم الحربية . فقد حوى الكثير منها قطعاً ادبية اجمع النقاد على انها ، كما بينا ، من اروع ما خلفته الآداب القديمة في براعة الوصف والتعبير ، مثل وصف الاماكن والمشاهد الطبيعية كالجبال والغابات والاهوار والبوادي والصحاري والتصوير البارع لاحتدام القتال والمعارك واشتراك الآلهة في القتال في بعض تلك المعارك ، على غرار ما نجده في الملاحم البطولية من الادب اليوناني . ولا يسعنا في هذه المقدمة الموجزة ايراد تراجم لبعض هذه القطع الأدبية فنكتفي على سبيل الاستشهاد بذكر وصف احدى المعارك الواردة في كتابات الملك الآشوري « سنحاريب » (القرن السابع ق.م) ، وهو وصف يفوق في

روعته وبراعته شعر اسطورة الخليقة في وصف النزال ما بين الاله « مردوخ » والالهة « تيامة » . ونسنشهد ايضاً بالوصف المؤثر الوارد في اخبار مايسى بالحملة الثامنة للملك الآشوري سرجون (٧٢١-٧٠٥ ق.م) على بلاد ارمينية واذرييجان ووصف البوادي والصحاري ورهبتها وحيواناتها الوارد في اخبار حملات الملك الملك الآشوري اسرحدون (٦٨٠-٦٦٩ ق.م) على بعض القبائل العربية (١) وقد اعتاد الملوك الآشوريون ان يصحبوا في حملاتهم الحربية ، بالاضافة الى المهندسين والآلات الحرب والعربات الحربية الضخمة ، عدداً من الكتاب لتسجيل سير المعارك ، وان اولئك الكتاب الادباء المجهولة اسمائهم الذين خلفوا لنا تلك القطع الادبية الرائعة مما سميناه بالنثر الادبي او الشعري . وقد صور بعض هؤلاء الكتاب في المنحوتات الآشورية المشهورة التي مثلت الحملات الحربية وانتصارات الجيوش الآشورية . هذا ولم يتفرد الكتبة الآشوريون في براءة وصف المعارك والقتال ، فان زملاءهم من الكتبة البابليين خلفوا لنا ايضاً نماذج من النثر الشعري في تصوير زحف الجيوش واهوال السير واحتدام المعارك ، نذكر على سبيل المثال الحملة التي دونها الملك البابلي ، نبوخذ نصر الاول (١١٢٤-١١٠٣ ق.م) في غزوه بلاد عيلام ، وقد دونت احداثها في ما يسمى احجار الحدود (كدورو)

(١) عن ترجمة الحوليات والحملات الحربية الآشورية راجع المصادر الاساسية التالية :-

1. pritchard (ed.), Ancient Near Eastern Texts (3rd,ed.1969)
2. Thureau-Dangin. Une relation de la huitie me Campagne de Sargen .
3. Luckenbill, The Annals of Sennacherib
4. ———, Ancient Records of Assyria and Babylonia (1927)
5. C.Thompson, The Annals of Esarhaddon and Ashurbanipal

(kudurru) (١) ، وقد تضمن النص بالاضافة الى القطائع والامتيازات التي منحها هذا الملك الى أحد قواده المسمى « رتّى - مردوخ » وصفاً ادبياً ممتعاً نقتبس منه العبارات التالية : « من دير (٢) ، مدينة الاله « آنو » المقدسة قفز مسافة ثلاثين « يرو » (ساعة مضاعفة) وسار في الطريق في شهر تموز . لقد احترقت النصال وتوهجت كأنها النار . وتوهجت احجار الطريق كأنها الافران الحامية . جفت الآبار وترنح حتى الابطال الشباب . ورغم ذلك سار في الطريق قدماً الملك المختار ، المصطفى ، المسند من الآلهة : اجل ! حث الخطى نبوخذ نصر الذي لا يضارعه أحد . . . »

. . .

(١) انظر :-

King, Babylonian Boundary Stones, (1912), No. 1v p.29ff

(٢) مدينة « دير » وتدعى ايضاً « دور - إيلو » مدينة شهيرة في تاريخ العراق القديم ، تقع بقاياها بالقرب من بكرة على الحدود العراقية - الايرانية (الحدود البابلية - العيلامية القديمة) ، وتعرف خرائبها باسم تلول العفر .

الموضوعات التي تناولها أدب العراق القديم وأشهر نصوص هذا الأدب

سبق أن نوهنا بأن أدب حضارة وادي الرافدين، سومرياً كان أم بابلياً، وبكلا نوعيه الشعر والنثر الادبي، قد تناول موضوعات عديدة كانت تشغل تفكير القوم في حياتهم العامة والخاصة مثل نظرتهم الى الكون والحياة وأصل الوجود والاشياء وآرائهم فيها ، والمجتمع الانساني ومشاكله وسلوك الفرد والقيم الاجتماعية ، وحياتهم الروحية والعاطفية ، ومشكلة الموت وما بعد الموت والخلود ، وقضية الخير والشر ، والعدل الالهي (Theodicy) مع وجود الشر ، الى غير ذلك من الموضوعات التي لا تقتصر أهميتها على أنها خير ما يصور لنا حضارة وادي الرافدين بجميع اوجهها ومقوماتها وفي ادوار ازدهارها وحيويتها وركودها وازماتها ، بل هي كذلك على قدر عظيم من الأهمية في تأريخ تطور الانسان ، لأنها كما ذكرنا ، كانت أولى واقدم محاولات من نوعها في تأريخ النوع الانساني عبرت عن الخبرات الانسانية الأولى من بعد انتقال الانسان الى طور الحضارة والمدنية في وادي الرافدين ووادي النيل في مطلع الألف الثالث ق.م .

ولكن رغم ان هذا النتاج الادبي كان ، كما قلنا ، اقدم واول محاولة في تأريخ الآداب العالمية ، فان مما يعجب له بل يبعث الدهشة في القارئ الحديث ان يجد هذا الادب قد انتج قطعاً أدبية تتسم بالصفات المميزة للادب الاصيل المبدع مهما كانت المعايير التي تقاس بها ؛ وسيقف القارئ بنفسه على هذه الميزات من

النصوص الأدبية التي سنعددها . ولكن قبل أن نبدأ بهذا الوصف ولكي يدرك القارئ المدى الواسع التي اشتملت عليه تلك الموضوعات نصنفها بحسب الابواب الرئيسة التالية :-

١- الخليقة واصل الوجود والاشياء :

ويأتي في مقدمة هذا الموضوع أصل الكون والآلهة والاشياء وخلق الانسان واصل العمران، ويدخل معظم هذه الموضوعات في علم الاساطير (Mythology) تحت المصطلحين : أ- اصل الكون (Cosmogony) ب- اصل الآلهة (Theogony)

٢- الملاحم واعمال الابطال والآلهة واشباه الآلهة، أي ما يصطلح عليه « أدب البطولة والملاحم » . (Epic literature)

٣- قصص الطوفان (Flood or Deluge Legends)

٤- اساطير ما بعد الموت او عالم الارواح او العالم الاسفل (Netherworld, Eschatology)

٥- أدب الحكمة (Wisdom Literature) ، ويدخل في هذا الباب الحكم والامثال وموضوع الخير والشر وعدل الآلهة (Theodicy)

٦- أدب المفاخرة والمناظرة (Disputation) ، والحوار (Dialogue)

٧- أدب السخرية والفكاهة (satire) وقصص الحيوان (fables)

٨- ادب الرثاء ، ولا سيما رثاء تدمير المدن ومراكز العمران (Lamentation)

٩- أدب الغزل والحب

١٠- الصلوات والتراتيل والادعية والتراتيم . (prayers, Hymns)

أساطير الخليقة وأصل الأشياء

١- اسطورة الخليقة البابلية :

جاءنا عن موضوع الخليقة وأصل الوجود والأشياء وخلق الانسان نصوص أدبية متعددة ومتنوعة ، بعضها باللغة السومرية وبعضها باللغة الأكديّة ، ومن ادوار مختلفة في حضارة وادي الرافدين ، ولاسيما منذ مطلع الألف الثاني ق.م من العهد الذي اطلقنا عليه العصر البابلي القديم والذي تميز بما ظهر فيه من نشاط أدبي واسع في حقل التدوين والتأليف والترجمة من السومرية الى البابلية (١) . وكان موضوع الخليقة وأصل الأشياء في رأس القضايا التي شغلت تفكير القوم فعالجوها بالاسلوب « الاسطوري - الشعري » (Methopoetic) ونشأ عن ذلك آراء وعقائد متعددة ومختلفة .

ومما يقال عن اساطير الخليقة المدونة باللغة السومرية (٢) انها قصيرة والكثير منها ناقص غير كامل ، ولكن البابليين (الساميين) الذين اسهموا بنصيب وافر في بناء حضارة وادي الرافدين واخذوا الشيء الكثير من التراث السومري (خلفوا لنا اطول واشهر قطعة أدبية عن هذا الموضوع وهي الاسطورة التي عرفت بين الباحثين باسم قصة او اسطورة الخليقة البابلية ، وتعرف أيضاً بعنوانها البابلي « حينما في

(١) عن خصائص هذا العصر الحضارية المهمة راجع ايجاز ذلك في كتابي : « مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة » الجزء الأول ، الطبعة الثالثة (١٩٧٣) .

(٢) سيرد ذكر المصادر الاساسية عن ترجمات هذه النصوص في اثناء كلامنا على النصوص المختلفة ، ويجدر ان نشير الى التراجم العربية في مجلة « سومر » المجلد الخامس (١٩٤٩) والمجلد السادس (١٩٤٩) والمجلد السابع (١٩٥٠، ١٩٥١) .

العلا» وباللغة البابلية «إينما إيليش» أو «حينما عليش» (enuma elish) وقد يسميها بعض الباحثين «رقم الخليفة السبعة» (The Seven Tablets of Creation) لأنها جاءت إلينا مدونة بالشعر البابلي على سبعة الواح من الطين ، يحتوي كل لوح منها ما بين ١١٥ و ١٧٠ سطراً أو بيتاً من الشعر ، ومجموع أبياتها نحو الف بيت وقد عثر على معظم الواحها في مكتبة الملك الآشوري «آشور بانيبال» في نينوى ، كما وجدت أجزاء منها في مدينة «آشور» (قلعة الشراقات) ، ووجد لها نسخ أخرى أقدم في المدن القديمة من بلاد بابل من العصرين البابلي القديم والبابلي الحديث . ويرقى زمن آخر تدوين لها إلى أواخر العصر البابلي القديم وأوائل العصر الكوشي لعله ما بين ١٤٠٠ و ١٥٠٠ ق.م . وتستند الأسطورة البابلية إلى أصول سومرية أقدم عهداً . أما موضوعها الأساسي فإنه يدور على تمجيد «مردوخ» إله بابل ، وتبرير تعاظم شأنه منذ آن صارت مدينة بابل عاصمة امبراطورية حمورابي الواسعة (١٧٩٢-١٧٥٠ ق.م) .

لقد نظمت الأسطورة شعراً ، كما قلنا ، ولكنها من الناحية الشعرية دون مستوى ملحمة جلجامش ، بل إن بعض القطع من النثر الأدبي تفوقها في براعة التعبير وروعة التصوير ، وقد ضربنا مثلاً لذلك بوصف بعض المعارك في أخبار الحملات الحربية الآشورية . ويرجح أن القصيدة كانت تتلى أو ترتل بالحان خاصة إبان عيد رأس السنة البابلية (أكيتو) (Akitu) الذي كان يحتفل به أوائل شهر نيسان ، كما يحتمل أنها كلها أو بعض مشاهدتها كانت تمثل على هيئة مسرحية أو دراما ولا سيما الأحداث التي تدور على تغلب الإله «مردوخ» على قوى الشر والعماء الممثلة بالآلهة العتيقة ، وإحلال النظام في الكون ثم خلق الإنسان ونشوء العمران .

وستتضح من الملخص الذي ستورده هنا عنها أهميتها البالغة في تاريخ حضارة وادي الرافدين من حيث عقائد القوم في اصل الوجود والآلهة وخلق الانسان ، بالاضافة الى أنها تصور جوانب مهمة عن احوال المجتمع من النواحي السياسية والاجتماعية ونظريتهم في اصل نظام الحكم والملكية ، واحوال البيئة الجغرافية وفوق هذا فللاسطورة اوجه أخرى من الأهمية عن العقائد الخاصة بالخليقة واصل الاشياء في الحضارات الأخرى القديمة . فقد اجمع الباحثون على وجود اوجه شبه اساسية واقتباسات كثيرة منها في عقائد الامم الأخرى ولا سيما العبرانيين كما جاء في التوراة ، وهناك مواطن شبه لايشك فيها في اساطير اليونان المتعلقة بأصل الكون والاشياء والآلهة .

ملخص الاسطورة :

لما كان يتعذر ايراد ترجمة كاملة للاسطورة في هذه الدراسة التمهيدية العامة عن أدب العراق القديم ، ولانني ساقدم دراسات أخرى تتضمن ترجمات كاملة لاشهر النصوص الادبية كما فعلت في ملحمة جلجامش فاننا سنقتصر فيما يلي على ترجمة اجزاء مختارة منها وعرض الاجزاء الأخرى تلخيصاً (١) :

(١) اول من ترجم بعض اجزائها الباحث القديم « جورج سث » في عام ١٨٧٦ بعنوان : « رواية التكوين الكلدانية » :

G. Smith, The Chaldean Account of Genesis (1876)

واعقب ذلك ترجمة الباحث الالماني « بيتر ينسن »

Peter Jensen, Die Kosmologie der Babylonier

ثم تعاقبت الدراسات والترجمات الأخرى نذكر من اشهرها :

Delitzsch, Das Babylonische Weltschöpfung Epos (1896)

ثم ترجمة انجليزية مع الفاظها البابلية ونصوصها المسمارية (المنشورة في CT,XIII

L. W. King, The Seven Tablets of Creation (1902)

S. Langdon, The Babylonian Epic of Creation (1923)

Deimel, Enuma Elish (936)

Labat, La poem babylonian de la Creation , (1936)

A. Heidel, The Babylonian Genesis (1942, 1951)

Speiser in Ancient Near Eastern Texts, (1950,1955,1969)

والى العربية في مجلة « سومر » (١٩٤٩).

« حينما في العلا لم يُنبأ عن السماء
« وفي الدنى (الاسفل) لم تذكر الارض باسم
« وحين كانت مياه أبسو » (الموجود الأول) ، والدهم
« والأم تيامة » والدة جميعهم ، واحدة مختلطة
« ولم يكن قد وجد أيُّ مرعى ولا يرى اي شئ حتى هور قصب
« حينما لم يظهر الى الوجود أي من الآلهة
« ولم تذكر اسمائهم ، ولا خصصت وظائفهم واقدارهم
« ثم وجد الآلهة في وسطهما (اي وسط أبسو وتيامة) :
« جاء الى الوجود « لَحْمُو » و « نَحَامُو » ، ودعيا باسميهما
« وقبل ان يبلغا اشد هما ويطولا قامة
« جاء الى الوجود « أنشار » و « كيشار » ، وفاقاهما بسطة في الجسم
« ثم تعاقبت السنون وتلتها الايام
« فجاء الى الوجود « آنو » ، بكرهم وورثهم ومنافسهم
« أجل صار آنو « بكر أنشار » ، يضارع أباه
« ثم ولد « آنو » نودمند (إيا) شبيهه
« صار « نودمند » سيد آبائه
« كان واسع الفهم ، شديد الحول والقوة
« اجل اصبح اشد حولا من جده « أنشار »
« ولم يكن له مثيل آخر بين اخوته الآلهة
« كان الاخوة الاقداس يتجمعون معاً
« ويقلقون « تيامة » ، و يهاجمون حاميهم (أبو)

« اجل صاروا يعكرون بطن « تيامة » وهم في حركة وصخب في المسكن المقدس

« لم يستطيع « أبسو » ان يقلل من ضجيجهم

« أما « تيامة » فأنها سكتت ولم تحرك ساكناً ازاء صنيعهم

« مع أن اعمالهم كانت مؤلة ، وصنيعهم شائناً

« وعندئذ استدعى « أبسو » ابو الآلهة العظام، وزيره «مو» وقال له « يامو»

ياوزيرى المطيب كبدي ، هلم نذهب الى تيامة»

« فذهبا الى « تيامة » وقعدا قدامها ، وتشاوروا في أمر الآلهة ، أبنائهم .

فتح أبسو فاه وقال لتيامة بصوت عال :

« لقد امرضتني اعمالهم

« فلا استطيع الراحة في النهار ولا النوم في المساء

لاقضين عليهم وأضع حداً لاعمالهم

لكي يعم السكون فنستطيع النوم»

ولما ان سمعت « تيامة » ذلك ، غضبت وصرخت بزوجها .

ادركت في قلبها ما يبئ من شر وخاطبت « أبسو » :

علام نخر ب ما او جدنا نحن بانفسنا ؟

حقاً إن صنيعهم يسبب الالم والمرض ، ولكن لنصبر على ذلك ونتحملة عن

طيب خاطر . (١)

ولكن « أبسو» وقد ساندته وزيره «مو» لم يثن عن عزمه في القضاء على أبنائه

من جيل الآلهة الحديثة ، ولما علم هؤلاء الآلهة بما بيسته لهم ابوهم من شر ودمار

اضطربوا وجزعوا ، واخذ يترაკضون على غير هدى ؛ ثم هدأوا اخيراً واستكانوا

(١) تنتهي هنا الترجمة سطرأ بسطر ، ويبدأ من هذا الموضع التلخيص والايجاز.

وجلسوا صامتين يائسين لا يدرون ما يفعلون للنجاة من الهلاك المحقق بهم . ثم انبرى من بينهم الاله « إيا » المتبحر في المعرفة والحكمة . فخط دائرة سحرية حول اخوته الآلهة ليحميهم من الهجوم والفتك ، وألف تعويذة سحرية قوية التأثير تلاها على « أبسو » فحل به في سبات عميق وشل عن الحركة، فانتزع منه تاج الالهية وجلالها ومجدها واستحوذ عليه ، ثم قتله وسجن وزيره « ممو » وابنتى في « أبسو » (١) بيتا له وسكن فيه هو وزوجته « دام - كِنَّا » ؛ وفي حجرة الاقدار والمصائر ولد ابنتهما « مردوخ » ، وربى على الرضاعة من اثناء الالهات وسرعان ما شب واكتسب « جلال » الالهية الصاعق المخيف ، وقوي عود جسمه وصار ثاقب النظر براق العينين حديدهما ، هائل الاعضاء والجوارح ، يعسر ادراكه على البشر ولا يمكن النظر اليه، له « اربع عيون واربع آذان ، ينبعث اللهب حين تتحرك شفتاه واستطالت آذانه الاربع واتسعت عيونه الاربع ، فصار يرى كل شيء ، اكتسى بنور الالهية واكتسب الجلال الذي يبعث الرعب » .

اما تيامة فانها لم تنس مقتل زوجها « أبسو » ، وحرصها على الثأر له بعض الآلهة العتيقة ، يتزعمهم « كَنكو » ؛ فاستجابت « تيامة » للتحريض وعبأت جموعها واعلت من منزلة « كَنكو » وجعلته زوجها ، وولدت مخلوقات غريبة مخيفة مثل الافاعي والثنانين الهائلة ؛ وعهدت الى « كَنكو » قيادة جموعها وزودته بالواح الاقدار والمصائر . ولم يفتن الآلهة الحديثة الى ما بيته لهم امهم « تيامة » من شر إلا حين اوشكت على الهجوم . ولما ادرك الاله « إيا » الهلاك المحقق بجيل الآلهة الحديث تملكه اليأس والرعب ، ولما ان زال اضطرابه قصد جده « انشار » وابلغه ما عزمت عليه « تيامة » ؛ فحرص « انشار » حفيده « إيا » على

(١) اعتقدوا في « أبسو » انه كان الها وفي الوقت نفسه المياه الأولى ومياه العمق، ولذلك سمي معبد الاله « إيا » بيت العمق أي « إي - أبسو » .

أن يتصدى لتزالهما ، ولكن البطل « إيا » الذي قضى على « ابسو » جبن واحجم
عن التقدم ؛ ثم طلب « انشار » من الاله « آنو » ان يكون رسول مصالحة وسلام
الى « تيامة » ، فذهب ولكن لم تنجح محاولته السلمية معها وعاد يملكه الرعب ،
وعندئذ عم الخوف والوجوم جميع الآلهة ، وعقد الصمت لسان « انشار » ؛
وجلس معه الآلهة وهم صامتون خائفون وبينما كان آلهة السماء في هذه الازمة
العصيبة عنت لانشار فكرة سعيدة اذ تذكر مايتصف به احد احفاده وهو
« مردوخ » من بسالة ومهارة ، فاستدعى « ايا » ابنه « مردوخ » واعلمه بنخطة
الآلهة . فقبل مردوخ الاضطلاع بهذا الدور الجسيم ، ولكنه طلب جزاء ذلك
ان يتبوا السلطة العليا المطلقة على جميع الآلهة ، فوافق على ذلك ابو الآلهة
« انشار » ؛ ولكن لما كان منح « مردوخ » تلك السلطة خارج صلاحيته
اقتضى الامر دعوة الآلهة الى عقد مجلس الشورى ، فاستدعى الآلهة للاجتماع
ولما انتظم عقدهم قبل أحدهم الآخر ، وقبل أن يتشاوروا في الامر
جلسوا الى وليمة عامرة ، اكلوا فيها وشربوا فذهب عنهم خوفهم وانشرحت
صدورهم بتأثير الخمر الجيد الذي احتسوه . وبعد ان فرغوا من الوليمة اقاموا منصة
لمردوخ ؛ فجلس عليها الأله الشاب قدام آبائه واجداده ليتسلم منهم السلطة
إذ اجمعوا على نقل سلطاتهم وزعامتهم اليه ، وفوضوه تقدير المصائر والاقدار
واعلوا سلطانه وجعلوه يضاهي سلطان « آنو » وارادته لاترد ولاتبدل ، وتوجه
ملكاً عليهم وعلى جميع الكون ولكي يطمئن الآلهة الى ان « مردوخ » حصل على هذه السلطة
المطلقة وضعوا في وسطهم رداء ، ولما ان فاه مردوخ بكلمة منه اختفى الرداء ،

وبكلمة أخرى نطق بها عاد الرداء ، (١) ولما ان تحقق الآلهة من اكتساب مردوخ القدرة المطلقة هتفوا قائلين : « حقاً إن مردوخ ملك » ! وقدموا له الخضوع والولاء بصفته ملكهم ، وقلدوه شارات الملوكية : الصولجان والتاج والجلباب ، وقلدوه السلاح الذي لا يقهر ، وحرصوه على قتال « تيامة » فأخذ الآلهة للتزال الرهيب وصنع لذلك قوساً وسهماً وكنانة وامسك هرواة بيده اليمنى وساق العاصفة والبرق امامه ، واحاط جسمه بنور وهاج ، وهياً شبكته ، فحملتها له الرياح الارباع واهاج عواصف الامطار ، وركب مركبته « العاصفة الرهيبية » تجرها اربعة مخلوقات مخيفة هي : « المدمر » و « القاسي » و « المحطم » و « الطائر » . وكان يلبس درعاً من الزرد . ولما ان اقترب من جموع « تيامة » بقيادة « كنكو » صعقت من جلال الوهيته المرعب ومنظره الرهيب واسلحته الفتاكة فهربت ، ولكن تيامة ثبتت امامه واخذت تقذفه بالسباب والشتم ولما ان تقدمت لمبارزته نشر شبكته واصطادها بها ، ولما فتحت فاهها لا بتلاعه ساق في فمها الرياح الشريرة فمنعها من اطباق شفيتها ، وسلط عليها الرياح الأخرى فانفتح جسمها وعندئذ بادرها بسهم رشقه في فمها الفاجر ، فاصاب قلبها (٢) وقضى عليها ووقف على جثتها منتصراً . ولما ان رأى بقية اتباعها من الآلهة نتيجة المعركة هموا بالهرب ولكن مردوخ

(١) من الباحثين من يرى أن سبب وضع الرداء كان لامتحان قوة « مردوخ » السحرية ، ولكن توجد اعتبارات فنية أدبية بالاضافة الى الناحية السحرية . فقد ادخل ناظم القصيدة نوعاً من الصناعة اللفظية ولاسيما الجناس اللفظي المشتمل عليه اسم « مردوخ » الذي يكتب بمقطعين من العلامات المسماة ، يعنى المقطع الأول وهو « مار » او « أمار » ، بالاضافة الى « ابن » ، وضع ، خلق افنى . ويعنى المقطع الثاني « دوك » رداء او لابس رداء .

(٢) حول اوجه الشبه بين قتال مردوخ لتيامة وبين ماورد في التوراة (سفر حبقوق ، الاصحاح الثالث) انظر البحث الآتي .

W.A. Irwin, "The Mythological background of Habakkuli chap.3" in Journal of Near Eastern studies, xv, (1956), 47ff

لم يدع احداً يفلت منهم حيث اسرهم وسجنهم وانتزع من قائد جموعها « كنكو » لوح الاقدار وختمه بختمه وعلقه في صدره ، ثم عاد الى جثة « تيامة » ففلق رأسها بهراوته الضخمة وقطع اوردة دمها ، وجعل الريح الشمالية تحمل دمها الى الجهات الجنوبية النائية ، ثم شطر جثتها الضخمة شطرين خلق منهما الكون ، إذ جعل من نصفها الاعلى السماء ، ومن نصفها الاسفل خلق الارض ، وعين للآلهة العظام « آنو » و « انليل » و « إيا » الاجزاء التي يحكمونها من الكون .

ولما ان تم ذلك لمردخ ارتآى ان يوجد مخلوقا سمي الانسان من اجل أن « يخدم الآلهة » ، واعلن عن عزمه لآبيه « إيا » ، فحبذ له ذلك وأشار عليه ان يضحى أحد الآلهة لذلك الغرض ، فقرر الآلهة في مجتمعهم أن يكون ذلك الاله « كنكو » لانه هو الذي حرص « تيامة » على محاربة الآلهة وقاد جموعها فامسك به مردوخ واوثقه وجاء به الى « إيا » ، فذبحه ومن دمه « خلق الانسان » (١) ، وفرض « إيا » على هذا الانسان « خدمة الآلهة » ليريحها من العناء والتعب . وقسم مردوخ من بعد ذلك مجموعة آلهة ال « انوناكي » المائة الى مجموعتين مجموعة للسماء ومجموعة للارض وعرفانا بفضل مردوخ وبطولته في تخليص الآلهة من الهلاك عمل آلهة الانوناكي طوال عام واحد في تشييد بيت يليق بمقامه فاقاموا معبده العظيم « إي - سا كلا » مع برجه في مدينة بابل من بعد أن أسسوها ، وخصصوا في المعبد مزارات لأنليل و « إيا » . وبعد ان تم ذلك اجتمع الآلهة في حفل ووليمة عزفت فيها الموسيقى وقدمت الجعة ، ورتل بمديح مردوخ وتمجيده ، وتنازلوا له عن اسمائهم والقابهم فصار له خمسون اسماً . وتنتهي القصيدة باللوح السابع الذي قلنا إنه كان يرتل تمجيداً لمردوخ في عيد رأس السنة البابلية .

(١) في اساطير أخرى عن خلق الانسان في حضارة وادي الرافدين ان الخلق كان من الطين ومن دم أحد الآلهة لكي تدب في الطين الحياة ، وسيرد ذكر هذه الاساطير .

ويجدر أن نذكر في ختام هذا الملخص لاسطورة الخليقة البابلية ان روايتين موجزتين وردتا عنها في الكتابات اليونانية ، احدهما للفيلسوف السوري - اليوناني الملقب بالدمشقي (Damacius) المولود في دمشق في حدود ٤٨٠ ميلادية (وكان آخر فلاسفة الافلاطونية الحديثة) . وان روايته خلاصة موجزة للاسطورة البابلية وقد عنوانها : «مشاكل المبادئ او العناصر الأولى وحلها» : (Difficulties and Solution of First principles)
والرواية الأخرى للمؤرخ البابلي « بروسس » (Berossus) ، كاهن الاله مردوخ في بابل الذي دون تأريخاً لبلاد بابل باليونانية في حدود سنة ٢٧٥ ق.م (في العهد السلوقي) ، وقد ضاع مؤلفه ولكن مقتبسات مهمة منه وردت في كتابات بعض الكتاب الكلاسيكيين ، ومنها موجز لاسطورة الخليقة البابلية وردت في كتابات الراهب اليوناني في القسطنطينية « سنكيلوس » (Syncellus) (Synkellos) (من اهل القرن الثامن الميلادي) ، وقد اقتبسها بدوره من كتاب يونانيين سابقين لاسيما من كتاب تأريخ الكنيسة للمؤرخ «يوسيبوس» (Eusebius) (من اهل قيصرية ، ما بين القرنين الثالث والرابع الميلاديين) ، وقد اقتبسها هذا عن المؤرخ «اسكندر بوليهاستر» (Alexander Polyhistor) (القرن الأخير ق.م) (١) .

بعض الملاحظات والاستنتاجات :

ترك للقارئ ما قد يستنتجه من آراء من اسطورة الخليقة التي لخصناها ؛ فهناك جملة مجالات للوصول الى آراء مختلفة تنطوي عليها الاسطورة وما قد يطبقونه من نظريات وتفسيرات تختلف باختلاف المدارس المتنوعة في تفسير الاساطير .

(١) انظر :

A.Heidel, The Babylonian Genesis, (1942,1951), 75ff.

مما لا يتسع المجال لايرادها ، فنكتفي بالملاحظات الشخصية التالية : -

١- يوجد تشابه وتناظر واضحان مابين اسطورة الخليقة البابلية وبين رواية التوراة عن الخلق والتكوين (سفر التكوين ، الاصحاح الأول : ١-٢ والاصحاح الثالث) ، فكلا المصدرين يشير الى ان الكون لم يكن فيه في البدء من شيء سوى العماء أو (Chaos) المؤلف من المياه الأولى . وتشابه الكلمتان المستعملتان لهذا العماء أو المادة الأولى في كلا المصدرين (١) وكانت المادة الأولى في الاسطورة البابلية مؤلفة من عنصرين :

(١) الماء العذب (أبسو ، وهو العنصر المذكور) (٢) والماء المالح (تيامة العنصر المؤنث) ، وقد جسم العراقيون القدماء هذين العنصرين وجعلوهما إلهما (أبسو) والهة (تيامة) ، وكانت مياههما واحدة مختلطة ، ومنهما ولدت الآلهة الأخرى وجاءت جميع الأشياء . فتكون المادة الأولى عند البابليين ذات طبيعة ثنائية : اذ كانت مادة والها في الوقت نفسه ، اى ان المادة كانت ازية وجدت منذ البدء ولم تخلق . وهنا نجد اختلافاً جوهرياً مابين العقيدة البابلية وبين عقائد الاديان السماوية ، ولاسيما ما جاء في التوراة والقرآن الكريم ، حيث وجود الخالق ازلي سبق وجوده المادة وهو اوجد المادة .

٢- في وسعنا أن نستنتج من وراء الغلاف الاسطوري لرواية الخلق البابلية احوال العراق القابم الجغرافية في بداية ظهور اولى الحضارات في السهول الرسوبية منه في المراحل الأولى من استيطانها . فالمياه الأولى والصراع والاحتراب مابين جيل الآلهة الجديدة بزعامة « مردوخ » وبين جيل الآلهة العتيقة المثلة بابوي الآلهة الأولين « أبسو » و « تيامة » (الذين قلنا إنهما يمثلان المياه الأولى) وتغلب مردوخ

(١) في الاسطورة البابلية « تيامة » او « تهامة » وفي التوراة « تيهوم » .

عليهما ثم احلال النظام في الكون بدلا من العماء والفوضى ، وخلق الكون والانسان واقامة العمران - كل هذا وغيره يصور لنا صراع العراقيين الأوائل مع بيئتهم الطبيعية والسيطرة عليها وبناء الحضارة . فان السهول الرسوبية التي نشأت فيها أولى الحضارات إن لم تكن مغمورة بمياه البحر بحسب النظرية القديمة والا فمياه الاهوار والاحراش الناجمة عن فياضانات الانهار ، ثم استطاع الانسان بمرور الازمان ان يسيطر على هذه الاحوال الطبيعية بما اقامه من سدود ونظام للري .

٣- وعلى ضوء المبدأ السائد في العقائد الدينية عند العراقيين القدماء من ان مجتمع الآلهة صورة للمجتمع البشري حسب المبدأ المعروف بالتشبيه (Anthropomorphism) في عزو صفات البشر المادية والروحية الى الآلهة ، يستطيع القارئ ان يصل الى استنتاج مهم آخر ، هو ان هذه الاسطورة تصور لنا أيضاً بالاسلوب الاسطوري الاحوال السياسية والاجتماعية في العراق القديم في اولى مراحل تكوينه الحضاري حيث كان نوع من نظام الحكم يصح أن نطلق عليه مصطلح « الديمقراطية البدائية » (Primitive democracy) ؛ إذ تصور الاسطورة الكون على هيئة دولة يحكم فيها الآلهة حكماً شورياً كانت القرارات فيه تتخذ في مجالس شورى بطريق الاقتراع ، كما حدث في تنصيب مردوخ ملكاً على الآلهة عن طريق الانتخاب ، ولعل هذا اصل الحكم ونظام المملوكية . والطريف ذكره بهذا الصدد ان الالهات ، مثل « عشتار » ، كن يصوتن في مجالس شورى الآلهة . وان نظام الحكم لم يكن من اصل النظام الكوني ، بل ظهر بصورة طارئة ابان تلك الازمة التي حلت بالآلهة ، وهي الحرب ما بين الآلهة الحديثة وبين الآلهة العتيقة ونشوء ضرورة القيادة الحربية .

وتمت امر مهم آخر نستنتجه من هذه الاسطورة ، ذلك هو العنف والصراع اللذان رافقا عملية الخلق والتكوين - وهذا انعكاس من العنف الذي تتميز به البيئة الطبيعية التي ظهرت فيها حضارة وادي الرافدين . على ان المتبع لاساطير الخليفة في حضارة وادي النيل يقف على عكس هذه الصورة حيث تمت عملية الخليفة بهدوء وسلام .

٤- هذا ولا يسعنا الاسترسال في ذكر التفسيرات الأخرى المختلفة التي ارتأها الباحثون المختلفون ، فنكتفي في ختام هذه الملاحظات بالتنويه بان احد هذه التفاسير يستند الى المذهب « الفرويدي » في التحليل النفسي في تحليل النزاع والاقتيال ما بين جيل الأبناء من الآلهة وجيل الآباء منهم بالعقدة المشهورة التي يطلق عليها فرويد « عقدة اوديب » ومع أننا لسنا متحمسين لهذا التفسير الا ان موضوع قضاء الأبناء من الآلهة على آباءهم يتكرر وروده في اساطير كثير من الحضارات القديمة ، مثل الحضارة اليونانية حيث قضى « كرونوس » على ابيه « اورانوس » ، وتغلب « زوس » على ابيه « كرونوس » على ما هو معروف في الاساطير اليونانية .

* * *

وسنحاول في الاعداد المقبلة من هذه المجلة عرض نماذج أخرى من النصوص الأدبية التي وصلت إلينا من العراق القديم .

طه باقر